

## الفصل الرابع عشر

### الشرق العربي في القرن التاسع عشر

.... وكنا قد تركنا الشرق العربي يغط في نوم عميق ، ورحلنا إلى الغرب لنتبع يقظته عن كتب . ثم بدأ الشرق العربي يصحو مع فجر القرن التاسع عشر . ومن حقه علينا أن نعود إليه وإلى بعض رواده من المفكرين .

ومن أقوال الرحالة الذين زاروا مصر والشام في أواخر القرن الثامن عشر تتضح لنا حقائق كثيرة عن الجهل العام الذي ساد البلاد في شتى مناحي أنشطتها بل شمل الركود في جوانبه العلم في الأزهر . ويرجع أن الهيئات التي تولت حكم مصر والاحتفاظ بها إيالة عثمانية ( وهي الباشا والديوان والمماليك ) التفتت إلى أطعامها وتزاحمها على السلطة ، ولم تلتق اهتماماً بأحوال الرعية وثقافتهم . بل إن القوة العثمانية وقفت سداً أمام اتصال المصريين بمحضارة الغرب وأضعفت البلاد حربياً ، كما أن مصر فقدت شطراً كبيراً بتحول التجارة عنها..

وزاد الأمر سوءاً سيطرة أفكار الدروشة والتصوف على عقول الكثيرين من أهل مصر ... فطالت المسابح المدلاة من الأعناق ، وتلونت العمائم والملابس الفغناضة ، وارتفعت بياراتق ، ودقت الدفوف ، وكثرت حلقات الذكر ... وفي الغرب معامل تختبر ، ومصانع تعمل ومطابع تخرج الكتب الكثيرة الغنية الغزيرة .

ثم حدث اتصال بين بعض علماء مصر وعلماء الفرنجة بعد أن فتح بونابرت مصر ، وكان من هؤلاء العلماء عبد الرحمن الجبرتي والشيخ حسن العطار والشيخ إسماعيل الحشاش .. وغيرهم . وقد أسفر الاحتكاك مع عقليات غربية عن مفاهيم مغايرة وبداية نمو لاتجاهات في التفكير احتاجت عشرات السنين حتى تتبلور عند بعض قادة الفكر والرأى . وكان الاحتكاك على أرض مصر في ظروف ضيقة وإمكانات محدودة . ثم اتسعت الآفاق بدراسة المصريين في أوروبا بعد الربع الأول من القرن التاسع عشر .

وعاد المبعوثون ليسهموا في رقي بلدهم ، ونبع منهم الكثيرون وتعلم من أهل البلد عليهم كثيرون . وكانت بداية انطلاقة .  
وقد يرى المؤلف خيراً في عرضه بعض الاتجاهات التربوية التي نادى بها ثلاثة من المفكرين في القرن التاسع عشر في مصر .

### رفاعة رافع الطهطاوى

هو السيد رفاعة بن بدوى بن على ... بن رافع المولود في طهطا من أعمال مديرية جرجا عام ١٨٠١ ، وهى السنة التي جلا فيها الفرنسيون عن مصر . ويعود نسبه من ناحية أبيه إلى الحسين بن فاطمة الزهراء بنت رسول الله عليه السلام .

ودرس رفاعة في الأزهر مدة خمس سنوات ختم فيها دروسه وأصبح أهلاً للتدريس ، فدرس في الأزهر ... « وقد كان رفاعة منذ عهده الأول مدرساً ممتازاً ، فأقبل عليه الطلاب وأفادوا منه ، وكانت حلقات دروسه في السنتين التاليتين لتخرجه حافلة دائماً بالمستمعين من التلاميذ والمشايع ... » (١) .

وقد رشح الشيخ العطار تلميذه رفاعة إماماً لإحدى فرق الجيش الجديدة ، ثم رشحه إماماً للبعثة الموقفة إلى فرنسا . وذهب الشيخ رفاعة إلى باريس ، ولم تكن النية متجهة إلى أن يدرس إمام البعثة إلا أنه انكب على الدرس والتحصيل وتعلم اللغة الفرنسية حتى أجادها ، وكانت دراسة رفاعة في الترجمة وأمضى خمس سنوات كاملة ترجم خلالها الكثير من الكتب والنبد والقطع والمقالات ، وجاز امتحان الترجمة عائداً إلى أرض وطنه بعد أن عاش في أرض غريبة أثرت حتماً على قيمه واتجاهاته . فقد اختلط بأقوام مختلفين وعادات غير مألوفة لديه ، وأنماط كان لها أثر كبير في حياته بين قومه . ولكن لم تؤثر إقامة الطهطاوى في عاصمة فرنسا أدنى تأثير على عقائده ، ولم تغير من أخلاقه الإسلامية وعوائده الشرقية ، كما يذكر ذلك على مبارك في خطته ،

(١) جمال الدين الشيال : رفاعة رافع الطهطاوى ، ص ٢٢

(٢) على مبارك : الخطط التوقفية ، الجزء ١٣ ، ص ٥٤

ومن بين ما كتب الطهطاوى عن الحياة الفرنسية فى كتابه « تخليص الأبريز  
إلى تليخيص باريز » يذكر رأيه فى المرأة الفرنسية ، وأنه لا يعترض على  
السفور مؤمناً بأن الصلاح ينشأ من التربية الصالحة والفساد من التربية غير  
الصالحة . ثم هو يقول إن العفة تستولى على قلوب النساء المنسوبات إلى المرتبة  
الوسطى من الناس ، دون نساء الأعيان والرعاع . فنساء هاتين المرتبتين تقع  
عندهن الشبهة كثيراً ، ويتهمن فى الغالب . ثم يرى رفاعه إن وجود المرأة  
الفرنسية فى المجتمع تكسبه جمالا ونضفى عليه بهجة وأنساً وحياة . ويعيب  
رفاعة على الفرنسيين انتشار الفواحش والبدع والاختلالات وأن لهم عقائد  
قبيحة وشنيعة كالإنكار بعضهم القضاء والقدر . ويذكر أن أكثر الفرنسيين لهم  
من دين النصرانية الاسم فقط ... فلا يعتنون بما حرمه دينهم أو أوجهه أو  
نحو ذلك .

وعين رفاعه مترجماً فى مدرسة الطب ثم نقل إلى مدرسة الطوبجية بطرة  
حيث ترجم فى الهندسة والجغرافية . وقد اقترح رفاعه إنشاء مدرسة للترجمة  
لسد حاجة البلاد من المترجمين والموظفين ليم الاستغناء عن الأجانب ،  
فأنشئت سنة ١٨٣٥ مدرسة الترجمة وغير اسمها إلى مدرسة الألسن (١) .  
وكانت الدراسة بها خمس سنوات يترجم فيها الطلبة كتباً فى التاريخ والأدب  
وتطبع الترجمات الصالحة .

ويقال إن الشيخ رفاعه كان على علاقة طيبة بمحمد على وابنه إبراهيم ،  
فلما مات إبراهيم وتولى عباس الذى كان يكره هذه العلاقة فاستبعده إلى  
السودان وظل بها حتى جاء سعيد فعاد إلى القاهرة . ويقال أيضاً إن على مبارك  
إثر عودته من أوروبا إبان حكم عباس ضايقه المركز الذى يحتله الشيخ رفاعه  
وطمع فى المنزلة التى يناها حتى أقصاه عباس . وكان سعيد يكره ما فعله  
عباس فأعاد الشيخ رفاعه إلى القاهرة . وأمطره الشيخ قصائد بمدحه فيها  
ويعدد صفاته الحميدة ومآثره النبيلة ، ومع ذلك فان سعيداً أصدر أوامره

---

(١) وكان مكانها بيت دفتر دار بحى الأزبكية .

في ١٨٥٥ بالغاء ديوان المدارس وتصفية ما فيه . ويقال إن رفاة كان قد اشترك مع إبراهيم أدهم بك في تخطيط لتعليم كافة أفراد الشعب ، ولكن انشغال سعيد بمشروع قناة السويس وغيرها من المشروعات كاصلاح الجيش قتل التخطيط . ثم عين الشيخ رفاة ناظراً للمدرسة الحربية بالقلعة وأصبح أميرالياً ، وصار يدعى رفاة بك بدلاً من الشيخ رفاة ... وعاوده الحنين إلى مدرسة الألسن وأيامها فأسمى يعدل في مناهج المدرسة الحربية حتى أنشأ بها قلماً للمحاسبة وآخر للترجمة ولبعض اللغات . وانكب على عمله في نشاط حتى عهد إليه بنظارة مدرستى الهندسة الملكية والعمارة وتفتيش مصلحة الأبنية ، ثم أشرف على الترجمة وعلى إحياء المؤلفات القديمة ونشرها . ولكن المدرسة أقفلت بعد خمس سنوات من إنشائها أى سنة ١٨٦١ وعاد رفاة إلى حياة بلا عمل ، بعد أن وضع لبنات الترجمة والنشر . فما كان أقوى غرام حكومة ذلك العهد بروية العلماء عاطلين (١) .

ومع تولى الخديو اسماعيل عاد رفاة إلى العمل وكان قد جاوز الستين من عمره فقد أعيد قلم الترجمة ، وأسندت نظارته إلى رفاة الذى عين أيضاً عضواً في قومسيون المدارس ، وأسندت إليه كذلك رئاسة مجلة روضة المدارس التى أنشأها على باشا مبارك مدير المدارس سنة ١٨٧٠ ، وهى مجلة علمية أدبية اجتماعية . وقد التحق بالتحقيق والتحرير فيها عبد الله فكرى بك للعلوم العربية والفنون الأدبية ، وبروكش ناظر مدرسة اللسان المصرى القديم وخص بالتاريخ ، وإسماعيل الفلكى بك وعهد إليه بالفلك ، ومحمد قدرى أفندى للجغرافية والأخلاق والعقائد ، وأحمد أفندى ندا وعهد إليه ببيان المسواد النباتية . والشيخ عثمان مدوخ ، وطلب منه إمداد المجلة بغرائب النواذر والضحكات والألغاز والأحاجى والنكات (٢) ... وكان يلحق بكل عدد من المجلة كتاب يؤلف لها ، مثل كتاب « حقائق الأخبار في أوصاف البحار »

(١) من محاضرة ألقاها محمد جلال الدين الراغب عن جده ، ص ٢٦

(٢) من افتتاحية العدد الأول للمجلة في : أحمد بدوى (المرجع السابق) ، ص ٧٢

لعلى مبارك باشا ، وكتاب « آثار الأفكار ومنثور الأزهار » لعبد الله فكرى ، وكتاب « الصحة التامة والمنحة العامة » لمحمد بدر مدرس الأمراض الباطنية بالمدرسة الطبية ... الخ .

وانتهت حياة رفاة بك فى سنة ١٨٧٣ بعد أن عاش حياة حافلة متمتعاً بصحة جيدة وأعصاب قوية حتى أمت به آلام النزلة المثانية . وشيعت مصر كما تشيع عظيماً قدم لها من علمه وإخلاصه ما جعلها تخلده فى سجل العظماء .

### آراؤه فى التربية

تولى رفاة الطهطاوى مناصب عدة مرتبطة بالمسائل التربوية والتثقيفية ، تفاوتت من التدريس فى إبتدائية الخرطوم ونظارتها إلى إدارة المدرسة الحربية وتخرج فيها ضباط أركان الحرب ، « ومدرسة الألسن » وكانت المورد لموظفى الدولة والى تحولت فيما بعد إلى مدرسة للمعلمين ، كما قام بدور كبير فى تنظيم تدريس اللغة العربية بالمدارس فكان يمتحن الفقهاء والشيوخ لىتخير منهم الأكفاء لوظائف التدريس . وكان يزور المدارس لىتفقد أعمال المدرسين ويختبر كفايتهم . وكان يرى أن مدرسى اللغة العربية من الأزهر يجب أن يتهجوا فى التعليم مناهج جديدة ، وأن يتلقوا علوماً جديدة ، ويدرسوا أساليب فى التربية جديدة تؤهلهم لعبء القيام بعملهم فى المدارس الحكومية .

ومن كتابات ومؤلفات رفاة بك يستخرج الدارسون آراءه فى التربية كما ورد ذكرها فى كتبه ومنها :

- تخلص الإبريز إلى تخلص باريز .
- المرشد الأمين للبنات والبنين .
- مناهج الألباب المصرية فى مباهج الآداب العصرية .

١ — فى التربية ومعناها : يعرف رفاة التربية بأنها فن تنمية الأعضاء الحسية والعقلية ، وطريقة تهذيب النوع البشرى ، ذكر أكان أو أنثى ، على طبق أصول مطلوبة ، يستفيد منها الصبى هيئة ثابتة يتبعها ، ويتخذها عادة

وتصير له دأباً وشأناً وملكة (١) .

وفى هذا التعريف يتكلم رفاة عن أن التربية عملية نمو وتعمل على تكوين اتجاهات صالحة للفرد تؤثر في سلوكه وتصرفاته . ويضيف رفاة إلى ذلك بقوله إن تغذية الطفل تتم على ثلاثة أضرب ، الضرب الأول هو تغذيته بالطعام لكي ينمو جسمه ، والضرب الثانى تغذية خلقه بتعويده العادات والطباع المرغوبة ، والضرب الثالث تغذية عقله بتعليم المعارف وألوان العلوم . وبهذا يجمع رفاة بين التربية الجسمية والعقلية والحلوقية . ويرى أن الأمة السعيدة هى التى أحسنت تربية بنها . فان تربية الأفراد تربية حسنة سوف يودى إلى النهوض بالهيوثة الاجتماعية .

٢ - فى نفسية التلميذ : يقول رفاة إن على ولى الأمر أن يتأمل حال الصبى ليرى ما هو مستعد له من الأعمال ، وحتى يستطيع أن يوجهه التوجيه الصالح . ولا يحمله على غير ما هو مستعد له . ويرى أن التربية الصحيحة هى تلك التى تلائم استعداد الطفل فتعمل على استغلال ذلك الاستعداد لتأخذ بيده حتى ينضج (٢) .

ويرى رفاة أن التنافس صفة إنسانية تبعث طالب العلم على أن يجهد كل الإجهاد ليفوق الأقران ، أو يساويهم ، وأن يستقرىء ، ويبحث عما يفعلونه من الحسن والطيب ، والملائم ، ليشارك الأقران فيه ، ويرع فيه بجودة فهمها ودقة نظره . فالتنافس فى رأيه غيرة محمودة وغبطة معهودة ، مركوزة فى جميع النفوس الزكية . ويدافع رافع عن التنافس فيقول .. « وربما ظهر ببادىء الرأى أن التنافس رفيق الطمع ، وشقيق الحسد ، وأن المتمسك به غير سالك فى السبيل الأسد . مع أنه ليس فيه شىء من هاتين المثلبتين ، بل بينه وبينهما بون بعيد فى الأثر والعين ، إذ ليس الغرض من التنافس حصر

---

(١) رفاة رافع الطهطاوى : المرشد الأمين للبنات والبنين ، ص ٥

(٢) المرجع السابق ، ص ٨

الفضل في صاحبه ، ولا الاختصاص بمكاسبه ومواهبه . بل مجرد التقدم في المعارف ، والدخول مع الأقران في ميدان السباق ، ليبادر كل منهم ، بالسمى والالحاق . فهذا يحسن حال المعارف البشرية . وتبلغ درجة الكمال « (٢) . ويرى رفاة أن الأطفال مختلفون في الذكاء . وأن التربية الموحدة لا تستطيع أن تسوى بينهم في الذكاء . لأن ذكاءهم يختلف باختلاف الاستعداد الفردي . ويرى أن الذكاء الكامل إذا صحبته التربية الرشيدة كان عظيم النجاح فان صحبته التربية المتوسطة ، كان يسير النتيجة ، لا يبلغ صاحبه الدرجة المنشودة .

٣ - في أخلاق المعلمين : يرى رفاة أن الأثرة خصلة دينية يجب أن يتخلص منها الأطفال فهي منبع الحرص والطمع ، ويرى أن يعلم الطفل ، ذكراً كان أو أنثى ، من بواكير الطفولة العقائد الدينية الدالة على وجود الله ووحديته ، ويرى أن تسير التربية الدينية جنبا إلى جنب مع تربية الطفل المعاشية . ولا ينصح رفاة بتوبيخ الطفل إذا خالف أصول الأدب في بعض الأوقات ، بل لا يكشف بأنه أقدم عليه ، هذا في أول أمره ، وفي المرة الثانية فيؤيخ الطفل سراً ، لأنه إذا تعود التوبيخ والمكاشفة أدى ذلك إلى أن يكون وقحاً ويهون عليه سماع الملامة في ركوب القبائح (٢) .

ويحترم رفاة صفات الأنوثة عند البنات وهي التي اختلفت بها دون الرجل ، والتي تزين بها ، وهي صفة الحياة والخوف والوجل ، فان المرأة لم تخلق لتحرز شجاعة الرجل ، ولكن لتحمل الرجال على الشجاعة .

٤ - في مراحل التعليم وأهدافها: يقسم رفاة التعليم إلى مراحل ثلاثة (٣):  
(أ) المرحلة الأولية أو الابتدائية ، وهي مرحلة عامة يشترك فيها أولاد الفقراء والأغنياء البنون والبنات ، ويدرسون فيها القرآن الكريم وأصول الدين

(١) المرجع السابق ، ص ٧٤

(٢) أحمد بدوي ( المرجع السابق ) ، ص ٢١٥

(٣) أحمد بدوي ( المرجع السابق ) ، ص ٣٠٨ - ٢٠٩

والقراءة والكتابة والحساب ومبادئ الهندسة والنحو . ويؤمن رفاة بأن الصانع إذا تعلم واجتاز هذه المرحلة بنجاح كان أقدر وأكمل في إنتاجه . وينصح المعلم في هذه المرحلة بأن ينجح أقصر الطرق في تعليم الغلمان حتى لا يضيع عليهم وقت طويل ، وهم أحوج الناس إليه في تعلم مهنة يكتسبون منها .

( ب ) المرحلة الثانوية : ويدرس فيها التلاميذ العلوم الرياضية بأنواعها ، والجغرافية ، والتاريخ ، والمنطق ، والطبيعة ، والكيمياء ، والإدارة الملكية وفنون الزراعة . والإنشاء والمحاضرات . وبعض لغات ( السنة ) أجنبية ، ويرى أن ترغب الحكومة الأهالي في هذا التعليم الذي يكون به تمدين جمهور الأمة . ويكون تعليم المهن على اختلاف أنواعها بعد الانتهاء من التعليم الثانوي .

( ج ) المرحلة العالية : وفي التعليم العالي يتخصص الدراسون ويتبحرون في علم مخصوص ، كعلم الطب ، والفقہ ، والجغرافية ، والفلك ، والتاريخ (١) ويرى أن يكون عدد تلامذة التعليم العالي محصوراً ، وألا يباح الانتساب إليه إلا لصاحب الثروة واليسار . بحيث لا يضر تفرغه للعلوم العالية بالمملكة .

فبينما يرى رفاة انتشار التعليم الأولي نجده يحدد ويضيق التعليم العالي ، وقد يكون هذا سليماً ، ولكن الذي نأخذ عليه أن معيار هذا التحديد كان المركز الاقتصادي ، لا القدرة العقلية والاستعداد عند المتعلمين .

٥ - في صلة المعلم بالتلميذ : يرى أن تبنى صلة المعلم بالتلميذ على الحب والإخلاص ويتكلم رفاة عن أن التلميذ يدعو لأستاذه كلما شرع في قراءة درس وتكراره أو مطالعته ، وإذا فرغ من الدرس دعا لأستاذه أيضاً ، كما يدعو الأستاذ للتلميذ . ويصر على أن يحترم المعلم تلاميذه ويجريهم مجرى بنيه ، وأن يكون شغوفاً عطوفاً عليهم ، صابراً على جفائهم وسوء أدبهم . ويستنكر

---

(١) يعتبر رفاة الطهطاوى أول مؤرخ مصرى عرف تاريخ مصر اقديم على حقيقته في ضوء ما وصلت إليه الكشوف الأثرية وما كتبه المؤرخون الأوربيون ، كما أنه من أوائل من نظروا إلى تاريخ مصر نظرة شاملة في جملته . ( أنظر جمال الدين الشيال : التاريخ والمؤرخون في مصر في القرن التاسع عشر ، ص ٤٩ - ٨٧ ) .

ضرب معلمى القرآن تلاميذهم الصغار ، ففى هذا خروج على حد الشرع .  
غير أنه يجيز للأب تأديب ابنه بالضرب ، وينصح المعلمين برغيب الأطفال  
على التعلم ، وهسايرتهم باللطف والرفق وأن يأذنوا لهم باللعب فى بعض الأوقات  
ويكون لعباً جميلاً غير متعب لهم ، ليستريحوا من عناء الدرس .

وإذا كان هذا موقف المعلم من المتعلمين . فان رفاة يطلب من المتعلمين  
التأديب مع الله ومع المربين ، والتواضع والاعتقاد فيهم . ويرى أن يطبع  
المتعلمون المعلمين ويسمعوا أقوالهم وينتصحوها بنصائحهم .

٦ - فى طريق التدريس :

- ( أ ) أن يبدأ المتعلم بالأهم ، ويرى أن يأخذ العلوم عن أسانئتها ،  
ويحذر من الاستفادة من الكتب إلا فى علم الحديث .  
( ب ) ألا يخرج الطالب من علم إلى غيره حتى يحكمه .  
( ح ) المطارحة والمناظرة فائدتها أقوى من فائدة التكرار .  
( د ) يقسم الدرس أقساماً حتى يسهل حفظه ، فهذا - فى رأيه - أدهى  
إلى الرسوخ فى الذهن من حفظه جملة (١) .

ويذكر أنه بعد الجولات التفتيشية التى قام بها ، أنه وجد عدم صلاحية  
الكتب التى بأيدى التلاميذ ، فألف كتباً جديدة ، يراها البعض أنها الخطوة  
الأولى فى سبيل النهضة بالكتب المدرسية فى تاريخنا التعليمى ، وكان رفاة  
يسترشد بما رأى وبما درس من كتب فرنسية أثناء تلقيه العلم فى فرنسا (٢) .  
٧ - فى تطوير الأزهر : وكان ابن الأزهر باراً بالمعهد الذى تخرج فيه ،  
فدعا إلى إدخال العلوم العصرية فيه ، قائلاً إنه لو تشبث خيار أهل العلم  
الأزهريين بالعلوم العصرية لفازوا بدرجة الكمال : وانتظموا فى سلك الأقدمين

(١) وفى هذا المعنى يقول :

يحسن حفظ اللوح لتصغير على مرار ، بل والكبير  
يرسخ فى الذهن ، وليس يحى جربه بالتقسيم وأقبل نصحا

(٢) جمال الدين الشيال : ( المرجع الأسبق ) ، ص ٥٠

من فحول الرجال ... وكل من سار على الدرب وصل . فيقول ومدار سلوك جادة الرشاد والإصابة منوط — بعد ولى الأمر — بهذه العصابة ( يقصد شيوخ الأزهر وطلابه ) ينبغي أن تضيف إلى ما يجب عليها من نشر السنة الشريفة ، ورفع أعلام الشريعة المنيفة ، معرفة سائر العلوم البشرية المدنية ، التي لها مدخل في تقديم الوطنية ، من كل ما يحمى على تعلمه وتعليمه علماء الأمة المحمدية ، فانه بانضمامه إلى علوم الشريعة والأحكام يكون من الأعمال الباقية على الدوام ، ويقتدى بهم في اتباعه الخاص والعام حتى إذا دخلوا في أمور الدولة يحسن كل منهم في إبداء المحاسن المدنية قوله ، فان سلوك طريق العلم النافع من حيث هو مستقيم ، ومنهجه الأبهج هو القويم يكون بالنسبة للعلماء سلوكه أقوم ، وتلقيه من أفواههم أتم وأنظم ، لا سيما وأن هذه العلوم الحكيمية للعملية ، التي يظهر الآن أنها أجنبية ، هي علوم إسلامية ، نقلها الأجانب إلى لغاتهم من الكتب العربية ، ولم تزل كتبها إلى الآن في خزائن ملوك الإسلام كالذخيرة ، فان من اطلع على سند شيخ الجامع الأزهر الشيخ أحمد الدمشوري رأى أنه قد أحاط من دوائر هذه العلوم بكثير ، وأن له فيها المؤلفات الجملة ، وأن تلقى إلى أيامه كان عند أهل الجامع الأزهر من الأمور المهمة .

وكان رفاة حريصاً على أن يقتبس من المدارس الأجنبية الموجودة بمصر وخارجها ما يجد أنه صالح للتطبيق في المدارس المصرية ، وكتب كثيراً في ( روضة المدارس ) عن أخبار المدارس الأجنبية ونشاطها .

٨ — في تعليم المرأة : رأى رفاة أن المرأة من أجمل صنع الله القدير ، وهي قريبة الرجل في الحلقة ، والمعينة له في تدبير أمره ، والحافظة لأطعماله ، والساهرة على العناية بتدبير أمورهم ، والماسحة بيدها همومهم وآلامهم ولكنها تمتاز عنه بحسب أليف وألطف شكلا ، لا يؤولها لأن تشاركه الأشغال الشاقة . وبنية جسمها على الرقة واللين توجب كونها ألطف من الرجل طبعاً وأرق حاشية ، فاذا انحرفت عن ذلك ، كان انحرافها ناشئاً عن ظروف التربية والبيئة .

وفي رأى الدكتور أحمد بدوى أن رفاة ربما كان أول من نادى بتحرير المرأة من ريقه الجهل في العصر الحديث ، ويدعم رأيه مسترشداً بكتاب الطهطاوى ( المرشد الأمين ) حيث يدعو إلى أن تنال الفتاة حظها من العلم ، كما يناله الفتى لأمر شتى (١) :

أولاً : ما للتعليم من أثر قوى في إسعاد بيت الزوجية ، وحسن معايشة الأزواج ، فالتعلم يخاق التناسب والتجانس بين الزوجين ، ويجعل المرأة أهلاً لمشاركة الرجل في الكلام ، وتبادل الرأى ، ويبعدها عن صغف العقل والطيش الذى ينتج من معايشة المرأة الجاهلة لامرأة مثلها ، وإن حصول المرأة على العلوم والمعارف ، وثقافتها الممتازة أجمل من صفات الكمال ، وأرفع قدراً عند الرجل من الجمال .

ثانياً : إن آداب الفتاة ومعارفها تؤثر كثيراً في أخلاق أولادها ، فابنتها الصغيرة إذا رأت أمها مقبلة على مطالعة الكتب ، وضبط أمور البيت ، والاشتغال بتربية أولادها أحبت أن تقلدها في ذلك على عكس ما إذا رأتها مقبلة على زينتها وتبرجها ، وإضاعة وقتها في هذا الكلام ، والزيارات التى لا فائدة منها ، فان البنت تشب مضياعة لوقتها ، منصرفه عن النهوض ببيتها :

ثالثاً : إن العلم يهيء للمرأة سبيل العمل . فتعاطى من الأعمال ما يتعاطاه الرجال على قدر قوتها وطاقتها ، إذا دفعها الحال إلى ذلك . وهذا من شأنه أن يشغلها عن البطالة . فان فراغ يدها من العمل ، يشغل لسانها بالأباطيل وقلها بالأهواء . فالعمل يصون المرأة عما لا يليق . ويقربها من الفضيلة ، وإذا كانت البطالة مذمومة في حق الرجال . فهي مذمومة عظيمة في النساء . فان المرأة التى لا عمل لها تقضى الزمن من خائضة في حديث جيرانها . وفيها يأكلون ويشربون . ويلبسون ، ويفرشون ، وفيها عندهم وعندها ... هكذا .

رابعاً : إن التجربة قد قضت في كثير من البلاد ، أن نفع تعليم البنات أكثر من ضرره ؛ بل إنه لا ضرر فيه مطلقاً .

(١) أحمد بدوى (المجمع الأبيق) ، ٣٢٠ - ٣٢٢

خامساً : إنه قد روى في كتب الأحاديث روايات كثيرة عن النساء ، وقد كان في زمن رسول الله من يعلم القراءة والكتابة من النساء للنساء ، وكان من أزواجه - صلى الله عليه وسلم - من يقرأ ويكتب ، كحفصة بنت عمر ، وعائشة بنت أبي بكر - رضي الله عنهما - وغيرهما من نساء كل زمن من الأزمان .

ويذكر ان لجنة تنظيم التعليم في سنة ١٨٣٦ اقترحت العمل لتعليم البنات في مصر ، وكان رفاة أحد أعضاء هذه اللجنة ، ولكن الاقتراح لم ينفذ ، فان المجتمع وظروفه وعقليته لم تكن تسمح وقتئذ بتعليم البنات كما اقترحته اللجنة ، واكتفى بإنشاء مدرسة للقابلات والمولدات (١) . ولم يسكت رفاة عن رأيه فدافع عنه كاتباً ومتكلماً ومستولاً ، مطالباً بأن تتعلم البنات القراءة والكتابة والحساب وما يليق بالبنات أن تعلمه من الصنائع كالحياطة والتطريز . وفي سنة ١٨٧٣ أنشئت أول مدرسة لتعليم البنات في مصر ، أنشأها جشم آفت هانم أفندي .

هكذا كان يفكر رفاة بك رافع الطهطاوي في التربية ومستقبلها ، فقد آمن بالتربية والتعليم والمعلمين ، حتى أنه كتب في كتاب المرشد الأمين ... « إن خير الناس من يمشي على الأرض المعلمون » (٢) .

---

(١) جمال الدين الشيال (المرجع الأسبق) ص ٥١

(٢) رفاة الطهطاوي (المرجع الأسبق) ، ١٤٦ ،

## على مبارك (١)

رائد التعليم الشعبي ، في لغة اليوم ، والمصلح التربوي الذي دفعته التجربة الواقعية والخبرة القاسية إلى الإصلاح . فأصلح في نظام التعليم مؤمناً بأنه عن طريق التربية لا السياسة يكون التقدم ، بل إن الإصلاح السياسي ما لم يرتكز على الإصلاح التعليمي فلا بقاء له ولا قيمة .

ويختلف على مبارك عن رفاة الطهطاوى ، فعلى مبارك رجل تخطيط على مستوى السياسات الكبرى ، يتطلع إلى أفق عريض ، فهو يتخطى عتبات الحاضر إلى المستقبل ، أما رفاة فكان راعياً في نظرتة إلى المسائل الجزئية ، فنبغ في إدارة المدارس الواحدة تلو الأخرى ، كما تألق في التأليف والترجمة . ولعل في حياة على مبارك الكثير من المفاجآت الممتعة للقارئ والتي صهرته صهراً وكونت له طابعاً مميزاً ، فهذا الطفل الذى ولد في برنبال إحدى قرى الدقهلية ( عام ١٨٢٣ ) صمم أن يصل إلى مراتب الحكام . وكان أبوه الشيخ مبارك مزواجاً ، أنجب من واحدة فقط سبع بنات وولداً واحداً هو على ، وعاش الطفل طفولة بائسة فقيرة ، وجلس إلى أبي عسر فقيه الكتاب كارهاً للتعليم . وعندما حلت الضائقة المالية على أسرته هاجر الشيخ مبارك إلى عرب السهانة الذين أكرموه وحل بينهم ليسد مطالبهم الدينية . وجلس على إلى أبي الخضر في كتاب قرية قريبة ولم نجد رشايوه لسيدنا قاسى القلب . وكره الكتاب كرهاً شديداً . وتركه ليكون صبياً لكاتب يعمل عند موظف كبير . ولم يتعلم منه على مبارك شيئاً يذكر بل تحمل إهاناته وضربه .

(١) المادة مستمدة من :

- أحمد أمين : زمام الإصلاح في العصر الحديث .
- سميد زايد : على مبارك وأعماله .
- أحمد عزت عبد الكريم : تاريخ التعليم في مصر .
- على مبارك : الخطط التوفيقية .
- محمد أحمد خلف الله : على مبارك وآثاره .
- محمد عبد الكريم : على مبارك ( حياته ومآثره ) .
- عمود الشرفاوى وعبد الله المشد : على مبارك - حياته ودعوته ومآثره .

ثم هرب على من ضغط أيه وأمه ، وأتم ظلاماً وسجن ، ثم ساعده السجان بعد خروجه ليكون كاتباً صغيراً عند مأمور زراعة القطن بأبي كبير ، هو « عنبر أفندي » وكان حبشياً أسود البشرة . وكان المعروف أن وظائف الحكام قاصرة على الترك البيض ، وعجب على مبارك وظل يسأل حتى عرف أن « عنبر » كان مملوكاً لسيدة ثرية وألحقته بمدرسة قصر العيني التي يتخرج فيها الحكام . وكان على يريد أن يكون من الحكام ، فأصبح شغله الشاغل الوصول إلى مدرسة قصر العيني وانتظم في الكتاب حتى يمر المفتش ، ومر ، وسافر إلى القاهرة ، ولكنه وجد مدرسة قصر العيني محيية رجاءه . ثم إلى مدرسة الهندسة بأبي رعبل ، ومنها دخل مدرسة المهندسخانة ببولاق ، وخرج منها في بعثة إلى فرنسا . واستمرت إقامته في فرنسا خمس سنين . وكان أثناءها يرسل إلى أبويه نصف ما رتب له ، وكان مائة وخمسة وعشرين قرشاً .

وقد خرج على مبارك من سني دراسته بمجموعة مفاهيم أثرت على اتجاهاته التربوية سواء في نظارته للمعارف . أو كتاباته المختلفة ومشروعاته الكثيرة . فقد ضايقه سيدنا ( أبو عسر ) بقسوته وشكليته ، كما كرهه معاملة أبي خضر ، وخاب أمله فيما تقدمه مدرسة قصر العيني من مواد دراسية أو وسائل للمعيشة . ومن هذه الخبرة آمن بأن التعليم يجب أن يكون من متطلبات البيئة ومسائراً لحاجاتها ، فقد كتب واصفاً الكتابيب ، « وكانت المكاتب الأهلية في المدن والأرياف جارية على العادة القديمة ليس فيها على قلة أهلها إلا تعليم القرآن الشريف ، وأقل من القليل من يتممه منهم . ويجيد حفظه ، ويجوده ، وبحسن قراءته . ومع رداءة الخط في عامة المكاتب ، .

كما آمن بضرورة تحرير التعليم من النظم العسكرية والعقوبات العنيفة . فقد رأى وخبر معاملة سيئة ، فكان الطعام المكون من العدس ، والقول يقدم على طبلية في ( قراونتين ) . ونام على مبارك على حصير من الحلفاء واستخدم أغطية صوفية ولبس جلباباً وزعبوطاً . ثم في تجهيزي ارتدى بدلة مكونة من عنبري أو صديري وسروال وحزام . وكان قص الشعر إجبارياً أسبوعياً ،

والاستحمام في الحمامات العامة مرة كل أسبوعين ، وقد فكر مراراً في الهرب ولكنه خشى أن يسجن أبوه أو يأخذ أحد أخوته رهينة حتى يعود . واستنكر على مبارك جلد التلاميذ علانية وتقييدهم بجزيير من الحديد جزاء خطأ ارتكبه .  
ويأخذ على مبارك على الفقهاء في المدارس والكتاتيب سوء فهمهم لعملية التربية ، فيقول إنهم كانوا يعتقدون في أن « عصاية الفقي من الجنة » فأكثروا من أذية الصبيان ، كما كان الخوف أساس العلاقة بين المعلمين والمتعلمين ، ودفع الخوف الأطفال إلى محاولة استرضاء الفقيه إما بالرياء والنفاق والفتنة أو بجله فيه .

ثم درس على مبارك في فرنسا ، ورأى ثقافة مختلفة ، وقد عرفنا شيئاً عن فرنسا في منتصف القرن التاسع عشر ، فقد مضى على ثورتها أكثر من نصف قرن وانتشرت آراء روسو وبستالوتزى ، وشاهد على مبارك دروساً في المعاهد التعليمية الفرنسية . ثم عاد إلى مصر في عهد عباس .

وتقلب في وظائف عدة . وأمضى سنوات بعيداً عن الوظيفة ، ولكنه استغلها في التأليف والكتابة . ويذكر أنه بدأ عمله برتبة يوزباشى أول ، وكان يعمل مدرساً في مدرسة طرة الحربية ، ثم ظل يترقى إلى أن نال رتبة الأميرالاي وكان ناظراً للمدرسة الهندسيانة . وفي عهد سعيد أوشى به حساده فأرسله الوالى إلى حرب القرم ، وعاد بعد حوالى سنتين ونصف ، ولكنه لم يجد عملاً . وفكر في العودة إلى مسقط رأسه والعمل في الأرض واشتغل في التجارة مزايدياً وعمل مهندساً حراً . وجاء عهد اسماعيل ووجد في على مبارك كفاءة يحق بها أطعامه ، فعهد إليه بتصميم وفتح شوارع مختلفة ، وبنى جسوراً وحفر ترعاً وأقام مساجد عديدة . ولكن على مبارك كان شغوفاً بالتربية ، ويلوح أن هذا الميدان هو الذى خلده اسمه كرائد من روادها الأوائل في مصر الحديثة .

### آراء على مبارك وإنجازاته في التربية

وصل على مبارك في عهد اسماعيل إلى أكبر منصب تربوى ، فكان ناظراً ( وزيراً ) للمعارف ، وقد أهله المنصب إلى أن يضع آراءه محل التنفيذ . ولعل

« لائحة رجب » ( ١٢٨٤ هـ - ١٨٦٨ م ) التي وضعها تعتبر قفزة هائلة في ميدان التعليم المصري ، وبداية للتعليم الشعبي المتحرر من أهواء الولاة والحكام ولو قليلاً . وقبل أن أعرض هذه اللائحة أشير إلى اتجاه من على مبارك كان خطيراً وجريئاً في نفس الوقت ، فهو يريد أن يقيم للتعليم القومي كياناً لا يتأثر بأهواء الحاكم ؛ فقد عز عليه أن يقفل عباس المدارس التي بناها محمد علي لخدمة أغراضه الحربية ، ثم يأتي سعيد وينكل بالتعليم ، لقد أراد على مبارك أن تكون المصادر المالية التي تصرف على التعليم القومي والشعبى غير مرتبطة بما يجود به الحاكم ، ولذلك أعد ميزانية تعتمد على الحكومة وعلى أموال من الأوقاف الخيرية .

ولائحة رجب في أقسام ثلاث :

القسم الأول : ويأخذ من المادة الأولى إلى السادسة والعشرين من اللائحة وهو خاص بمكاتب المدن . وكان بالقاهرة وحدها ٢٢٢ مكتباً يراوح عدد التلاميذ في كل منها بين خمسة تلاميذ ومائة . وكانت المكاتب فوضى في مبانيها وإدارتها وحتى ما يدور فيها . وقد ألغى على مبارك غير الصالح من هذه المكاتب مع تحويل تلاميذها إلى مكاتب مناسبة . ثم اهتم بتزويد المكاتب الكبيرة بالمدرسين الذين يدرسون الخط والحساب والصرف والجغرافية والتاريخ ولغة أجنبية . أما في المكاتب الصغيرة فيدرس بها العرفاء والمؤدبون القراءة والكتابة والعد إلى جانب تعليم القرآن الكريم . كما اهتم بالمكاتب الأهلية غير التابعة للأوقاف فسمح بأن يندب لها من ديوان المدارس من يحتاجه من المعلمين .

واهتم على مبارك بالرعاية الصحية بين التلاميذ ، فرتب لكل جهة طبيباً خاصاً ، كما أولى عنايته بالمتفوقين فكانوا يحضرون حفلات الحكومة في الأعياد وأصبح من حق التلميذ أن ينتقل من مكتب صغير إلى مكتب كبير دون امتحان أما إذا أراد دخول المدارس الحكومية ( الأميرية ) فعليه اجتياز امتحان معين .

القسم الثاني : ويأخذ من المادة السابعة والعشرين إلى الثانية والثلاثين من

( م ٢٨ - تطور الفكر )

اللائحة ، وهو خاص بتنظيم مكاتب القرى والنواحي ، وقد كلف على مبارك الأهالي بجملة مصاريف المكاتب التي تنشأ أو توجد فعلا في قراهم ، كما كان عليهم دفع أثمان الكتب والأدوات المدرسية اللازمة للتلاميذ القادرين على شرائها .

القسم الثالث : ويأخذ من المادة الثالثة والثلاثين إلى المادة الأربعين ، وهو خاص بالمدارس المركزية التي يصير إنشاؤها في مراكز المديریات ، وقد كلف الأهالي ، ما لم توجد مبان حكومية لائقة ، بناء مدارس لأولادهم وتأثيثها ، أما الأدوات المدرسية والكتب وهـأكل وملابس التلاميذ فكانت تؤخذ من أموال الأوقاف الخيرية . ويحتم على مبارك اللائحة بتنبية للمؤدبين أو المعلمين .

هذا ، ويبلور الدكتور محمد أحمد خلف الله الأسس التي قام عليها لإصلاح على مبارك في التعليم ، فيقول عن اللائحة إنها :

١ - احتفظت للكتاتيب بحياتها البسيطة التي درجت عليها منذ إنشائها ويمثل ذلك في احتفاظها بالقرآن الكريم أساساً للتربية والتعليم ، وبمعلمي الأولاد من الفقهاء والعرفاء ، وبالآثاث البسيط الذي لم تعرف الكتاتيب غيره . كما أقرت اللائحة الكثير من التقاليد والعادات المرعية فأقرت الحرية التي يتمتع بها الأهالي في إرسال أبنائهم إلى الكتاتيب أو صرفهم عنها .

وحرصت اللائحة حرصاً شديداً على أن تظل هذه الكتاتيب مؤسسات أهلية لا تتدخل الحكومة في شأنها إلا بمقدار ، وذلك لتظل هذه الكتاتيب محتفظة بثقة الأهالي ، وتصبح في الوقت نفسه في يد الحكومة على أنها الأداة الشعبية البسيطة الرخيصة لمكافحة الأمية ، ومقاومة الجهالة ، ونشر قسط من التعليم ... كما وصلت اللائحة بين هذا اللون من التعليم وبين التعليم الأميري الممثل في مدارس الحكومة الابتدائية والتجهيزية ، فرسمت بأن التلامذة المنتهين من تلك الكتاتيب يدخلون إذا أرادوا في المدارس الابتدائية أو المدارس المركزية الأميرية .

٢ - قسم على مبارك مكاتب الأوقاف قسمين على أساسين مختلفين ، الأول من حيث الموارد المالية التي تعتمد عليها هذه المكاتب ، وكان بعضها تحت نظر ديوان الأوقاف وبعضها الآخر له أوقاف نظارتها لغير ديوان الأوقاف ، فأخضعها على مبارك للمعارف من حيث الإشراف الفني ، وأخضعها لديوان الأوقاف من حيث النظارة والموارد المالية ، أما القسم الثاني فقام على أساس آخر هو عدد التلامذة في كل مكتب ، فقسمت المكاتب إلى كبيرة وصغيرة ، أو إلى مكاتب من الدرجة الأولى ، ومكاتب من الدرجة الثانية . وقامت الدراسة في المكاتب الكبيرة على أساس أنها تقريباً كالمدارس الابتدائية ، أما الصغيرة فقد قنعت اللائحة منها بأن جعلتها مرحلة قيل هذه ، واكتفت بما كان يدرس بها من القرآن الكريم والقراءة والكتابة ، ولم تضاف إليها إلا شيئاً قليلاً من الحساب .

وخضعت مكاتب الأوقاف لإشراف المعارف وأصبحت جزءاً من النظام التعليمي العام .. « فجميع المدارس والمكاتب سواء بالقرى أو بالبنادر تكون تحت أصول تنظيمية وترتيبات حسنة منتجة ، وامتحانات سنوية ، وملاحظات وتفريشات من طرف الحكومة . وهذا لتحسين حالهم واستقبالهم ومنفعتهم الخصوصية العائدة إليهم مع المنفعة العمومية على الحكومة مع تهذيب رعاياها وإصلاح حالهم . ووجود التعاون بينهم ، ومعاونتهم لأوطانهم » .

ورمى على مبارك إلى الإكثار من عدد المدارس ، ولكن عقبة المال وقفت أمامه ، وقد رأى أن يسلك طريقين . الأول تعديل أساس الحياة المدرسية في المدارس التي تنشأ الدولة وتنفق عليها من الميزانية العامة أو من إيراداتها ، والثاني تكليف الأهالي إنشاء مدارس على نمط المدارس الأميرية أو المركزية . . والأساس الذي قامت عليه الحياة المدرسية في النظام الجديد أنها تحولت من حياة عسكرية يجمع فيها الصبية ، وتصرف عليهم الدولة ، إلى حياة مدرسية يتردد فيها الطالب على المدرسة نهاراً ويبيت في منزله ليلاً ، ويدفع ولى أمره بعض تكاليف تعليمه . بهذا أصبح نشاطاً تشترك فيه الحكومة والأمة .

ولعل مبارك الفضل في إنشاء مكاتب لتعليم البنات أحدهما في القرية والآخر بالسيوفية ، مؤكداً بذلك هدفه من التعليم عامة وجعله مطلقاً وطنياً قومياً لا وسيلة في يد الوالي لتنفيذ مآربه .

وكان من رأى على مبارك توسيع القاعدة في التعليم في مرحلته الأولى وتيسير التعليم فيها مع تحسين مادة التعليم وطرائق التدريس . ولهذا فقد اتجه إلى ثورة في إعداد المعلمين ، ثم اتجه إلى نشر الثقافة لمختلف الأعمار . وسوف أتناول الاتجاهين :

#### إعداد المعلمين :

جاء في البند السادس عشر من لأئحة رجب : « تعيين المعلمين والمؤدبين يكون بمعرفة ديوان المدارس وتعطى لهم شهادة من الديوان المذكور ، وهذا يكون باتحاد الديوان المذكور مع من يلزم من العلماء وعمد الجهة . » وجاء في البند السابع عشر : « شرط المؤدب أن يكون حسن الأخلاق والصفات وفيه أهلية لتعليم القرآن الشريف كما ينبغي ، وأن يكون له معرفة بأموال الدين القويم وأن يحسن باب العديعة من الحساب . »

وجاء في رسالة أرسلها إلى زوجته يصف فيها المؤدب الذي يجب أن تتخيره لتعليم أولاد الأسرة من البنين والبنات ( وردت الرسالة في كتابه « علم الدين » ) . « وإذا اخترت مؤدباً فالأولى أن يكون موصوفاً بأوصاف الكمال . ذا معرفة ووقار ، وسكينة وجلال . وأن يكون في فن الحساب كاشفاً عن مخدراته النقاب وفي فن اللغة والأدب كأنما حفظ لسان العرب ، وفي العقيدة أشعرياً ، وفي الأخلاق أحنفيّاً ، وفي علم السير مجدداً ، وفي الحديث نهراً . ولا يلزم أن يقيم معهم طول نهاره ، بل يكفي أن يأتي لهم في وقت معين ، والأولى أن يكون بعد وقت إفطاره ثم يخرج بعد أن يقسم لهم الوقت نصفين : نصف يشغلون فيه بالمطالعة والمذاكرة والنصف الآخر يلعبون فيه ، والأولى أن تكون حصة اللعب متخللة بين أوقات التعليم والمذاكرة لئلا يطول عليهم الجلوس ، فتحمد فكرتهم ، وتضعف بنيتهم وأرجوك منع

الضرب مطلقاً ؛ وأن تسلكي بهم طرق التصيحة ، والأسباب الموجبة لزيادة الاجتهاد وصفاء القرينة كأن تهدي إلى المجتهدين منهم بعض تحف ، من ملابس أو مأكلة أو كتب أو مصحف ، ونحو ذلك مما تميل إليه الأطفال على حسب ما يظهر لك من الأحوال ، فإن ذلك باعث لغيرتهم وازدياد رغبتهم أكثر ما يكون بالأذى والضرب ، لأن الضرب يؤثر في الأعضاء الظاهرة فقط ، وبعد برهة من الزمن يزول كأن لم يكن ، بخلاف ذلك يؤثر في الباطن .. وأيضاً فإن الضرب يحرك الشهوات الغضبية عند الضارب فلا يقف في ضربه عند حد العقاب بل يتعداه لما يخطر في باله من سوابق ذنوب المصروبين ، فربما أضر بأعضائهم أو ترتب على الخوف والرعب بحتم عمّا يخلصهم من يده ، فيحتجون بكل ما أمكنهم من الحجج من غير تمييز بين قبيحها ومليحها حتى ينجو من يده ، وربما ألبأتها الاحتجاجات والتعلات إلى أسباب الدناءة وخسة الطباع فتبقى فيهم طول عمرهم ..

وفي هذه الرسالة يتكلم على مبارك عن الشروط الواجب توافرها في المعلم أو المؤدب ، من الناحية العلمية ، والأخلاقية ، وعلاقته بالأطفال ، ويلمس في الجزء الأخير من الرسالة ( لم أذكره فيما سبق ) عن ضرورة البدء بالكلمات الصغيرة والحكم القصيرة ثم يتدرج منها إلى ما فوقها . ويلمس أيضاً نواحي نفسية خاصة بالمؤدب والطفل .

لذلك كانت عناية على مبارك بأعداد المعلمين بعد ما قاساه منهم ، ورغبة في تحسين أحوال التعليم عامة كركيزة للنهوض بوطنه . ولم تكن هناك معاهد خاصة لتخريج المعلمين ، فكان الأزهر بمد البلاد بمدارس اللغة العربية والدين والقرآن الكريم ، وتمت مدرسة الألسن المدارس بمدارس اللغات الأجنبية والمواد الأدبية أما مدرسة المهندسخانة فكانت تقدم مدرسي الرياضة ، ولم يكن هؤلاء يعدون ليكونوا معلمين اللهم إلا معرفتهم المادة التي يدرسونها ، وشعر على مبارك بالمشكلة ... وحيث كان من أهم ما يلزم للمدارس الاستحصال على معلمين مستعدين للقيام بسائر وظائف التعليم أمعنت النظر في هذا الأمر

المهم « وإذ ذاك فكر في إنشاء مدرسة يؤخذ لها من خيرة طلبة الأزهر بامتحان ويختار لها خيرة العلماء من الأزهر وغيره ، ويعلم طلبتها العلوم الدينية وشيئاً من علوم الدنيا كالرياضة والجغرافية والتاريخ والطبيعة والكيمياء ، فكان من ذلك كله مدرسة دار العلوم .

« دار العلوم » كانت اسماً لقاعة المحاضرات الملحقة بالكتبخانة ، وحوها على مبارك إلى مدرسة لتخريج المعلمين . وكان يصرف للطلبة فيها مرتب شهري يعينهم في كسأهم ونفقاتهم « كما كانوا يتناولون فيها طعام الغذاء . وتخبر لهم على مبارك جماعة من أفاضل علماء الأزهر ، فانه كان كثير الشكوى من ضعف التلاميذ في اللغة والنحو . ويذكر على مبارك سبب إنشائه هذه المدرسة لتخريج معلمى اللغة العربية في التماس رفعه إلى الخديو في ٣٠ يولييه عام ١٨٧٢ « بما أن مرغوب الجانب الخديو نشر أنوار التمدن والتقدم بتوسيع دائرة التربية والتعليم ولذلك حصل بعنايته السنية وفي ظل حضرته العليّ بتجديد ما تجدد من المكاتب الأهلية ولم يزل حاصلًا مزيد الاهتمام بحسن تنظيمها وازديادها وتعميمها في سائر جهات الوطن العزيز وذلك يحتاج بالضرورة لوجود كثيرين من مهرة المعلمين يقومون بواجبات حسن التربية والتعليم على الوجه الأتم كمرغوب جناب ولى النعم .

وقد تلاحظ أن المشتغلين الآن بوظيفة التعليم في اللغة العربية والتركية ليس فيهم الكفاية بالنسبة لذلك ، فان وافق الحضرة العلية ينتخب قدر ٥٠ من نجباء الطلبة من سن ٢٠ سنة إلى ٣٠ سنة يؤخذون بالامتحان لمن يرغبون ذلك ويوجد فيهم الأهلية واللياقة ويدرس لهم في دراهم العلوم الملحقة بالكتبخانة العامرة مايلزم لتعميم معلوماتهم واستعدادهم لأداء وظيفة التعليم وحسن التربية على الوجه المطلوب والأسلوب المرغوب . ويحصر جميع الدروس التي تلقى إليهم ويربط كل منهم مدة إقامته تحت التعليم ١٠٠ قرش شهري ضمن المتحصل للكتبخانة من الرسوم بديوان الأوقاف . وعند تعيين أحد منهم في وظيفة في مكتب من المكاتب بعد تمام تعليمه وظهور براعته بالامتحان يربط له بدل

١٠٠ قرش المذكورة على الجهة التي يعين لها الماهية اللازمة على حسب الوظيفة التي ينتخب إليها فانه بهذه الوسطة يمكن الاستحصال على ما فيه الكفاية من المعلمين للغة العربية والتركية ويؤخذ منهم لجهات الاقتضاء على حسب اللزوم ، وبذلك يتقدم ويستقيم أمر المعلم والمتعلمين .

فبناء عليه لزم ترقيمه لعرض ذلك على الأعتاب السنية وترد الإفادة عما يصدر الأمر الكريم بمقتضاه .

وقد ووفق على التماس على مبارك ، وعمل به ابتداء من أغسطس عام ١٨٧٢ .

الثقافة العامة :

كانت لائحة رجب لتنظيم التعليم في المدارس العامة والخاصة ، ثم أعداد المعلمين اللازمين لهذه المدارس ، وكانت الخطوة الثالثة المباركة نحو تيسير الثقافة لأبناء الوطن خارج المدارس . وفي هذا السبيل ألف على مبارك مجموعة كتب ، كما شجع غيره على الترجمة والتأليف . كما أنشأ داراً للكتب .

أما مؤلفاته فقد عرف عنه أنه كان رجلاً موسوعياً متنوع الثقافة . فقد كتب في الهندسة العسكرية ، والأدب ، والتاريخ ، والطب ، والجغرافية ، والحديث الشريف ، والموازن والأقيسة . والهجاء ، والتمرين على القراءة ، والحساب . وكتبه تنقسم إلى نوعين ، ثقافة مدرسية خالصة ، والنوع الثاني ثقافة عامة .

أما الكتب المدرسية فقد ألف بعضها بمفرده ، كما اشترك معه آخرون في تأليف البعض الآخر . ومن هذه الكتب المدرسية : تذكرة المهندسين ، تقريب الهندسة ، تنوير الأفهام في تغذي الأجسام ، خواص الأعداد ، طريق الهجاء والتمرين ، الميزان في الأقيسة والمكاييل والأوزان ، حقائق الأخبار في أوصاف البحار ...

أما كتب الثقافة العامة ، فأهمها كتاب « الخطط التوفيقية » وفيه يصف

القاهرة وحرارتها وشوارعها ومساجدها ومدارسها ، كما يصف مدن مصر وقرأها مرتبة على حروف الهجاء . ويذكر أن كتاب « الخطط التوفيقية » أكمل به على مبارك خطط المقريزي ، والكتاب في عشرين جزءاً أو خمسة مجلدات ( حوالى ألفى صفحة ) ، ويقال إنه كان يستعين بمروؤسيه من الموظفين في الوزارات التي تولاها كالمعارف والأوقاف والأشغال ، في جمع كثير من المعلومات التي ضمنها كتابه هذا .

ولعل مبارك كتاب آخر اسمه « علم الدين » وهو قصة شيخ تربى في الجامع الأزهر ، وتلمذ عليه مستشرق إنجليزي ثم دعاه لزيارة إنجلترا . وفي الطريق من القاهرة إلى الاسكندرية كان الشيخ علم الدين يجيب على أسئلة المستشرق . وبعد الاسكندرية صار الشيخ هو الذى يسأل والمستشرق يجيب ، وكان غرض على مبارك من الكتاب إعطاء الشرقيين معلومات عن الغرب وحضارته وقيمته ومن كتبه أيضاً « نخبة الفكر في تدبير نيل مصر » وهو كتاب في الجغرافية يشتمل على مقدمة وأربعة أبواب . تكلم فيه الكاتب عن تاريخ الديار المصرية ، وفيها يتعلق بالنيل من مسائل : وفي تكوين وادى النيل ، وفي أهالى القطر المصرى .

كما أشرف على مبارك على ترجمة كتاب « خلاصة تاريخ العرب » لمؤلفه العالم سيديو Sedcillot . وظهرت له عدة مقالات في « روضة المدارس المصرية » .

ومظهر آخر من مظاهر إنمائه الثقافي العامة ، إنشاء دار الكتب ، ويقول : « ولما لم يكن بمصر دار كتب جامعة عامة يرجع إليها المعلمون للاستعانة على التعليم كما في مدارس البلاد الأجنبية : أنشئء محل بجوار المدارس من داخل سراى درب الجماميز المذكورة لهذا الغرض ، وصرف عليه من مربوط المدارس : فجاء محلاً متسعاً يزيد عن لوازم المدارس من الكتب وأدوات التعليم ... وصدر أمر بأن تجمع فيه الكتب المتفرقة ( أى الموجودة في الجهات الميرية وجهات الأوقاف ) فجمعت من كل جهة وجعل لها ناظر وخدمة ، وترتب لها مغير من علماء الأزهر لمباشرة الكتب العربية وآخر لمباشرة الكتب

التركية . ونظمت لما لأتحة صار نشرها يؤذن لها باباحة الانتفاع بها للطالبين وسهولة التناول للراغبين مع الصيانة لها وعدم التفريط فيها فجاءت بحمد الله من أنفع الإنشاءات ... وجعلها محل على الكتب والمطالعة والمراجعة فيها والسخ والنقل منها ، ورتب فيه ما يلزم للكتابة من الأدوات بحيث يتيسر بهذا الموضوع لكل من شاء غرضه من ذلك متى شاء ... »

ويتضح من مجهودات على مبارك ، وقد تعرضت لبعض منها ، أن اتجاهه كان نحو المصالح الجماهيرية بإيمان واضح وبرغبة صادقة في تحسين التعليم وخاصة في المرحلة الأولى منه ، مرحلة الكتاتيب والمدارس الابتدائية ، ثم يتطلع إلى تثقيف عام للجماهير ، أما ما بينهما فيلوح أن القوة الحاكمة كانت ذات سلطات لا يستطيع إزاءها على مبارك كثيراً . ويلوح أن الخديو إسماعيل أرضى نفسه من حيث تباهيه بأن عمصر داراً أكبر للكتب ، وفيها أيضاً مدارس في القرى .

## عبد الرحمن الكواكبي

.. بدأت مصر تطل على العالم بعدقرون من النوم العميق المخدر، ولكن العالم المتحضر كان قد سبق فجاء إلى مصر مع الحملة الفرنسية : وبدأت العواصم العربية في سوريا والعراق وشبه الجزيرة العربية تنظر بعين متلهفة وخائفة في نفس الوقت لهذه الهزة الحقيقية التي تحرك مدينة الألف مثذنة - القاهرة المحروسة . وتلفت المسلمون وأمعنوا النظر في موقفهم ، فهاهى الدولة المسلمة الكبرى ( الدولة العثمانية ) تحيطهم بكل أنواع الاستبداد والاضطهاد . كما بدأت الدول العظمى ( إنجلترا فرنسا ) تلمح كنوزاً وإمكانات في الشرق العربي الإسلامي .

وكانت الدولة العثمانية رجلاً مريضاً هرمياً ، لا يقوى على الثورات المتلاحقة في بلاد البلقان واليونان . بل إن رجلين من داخل البلاد العربية وجدا الفرصة سانحة لزيادة علل الرجل المريض ، محمد عبد الوهاب في شبه الجزيرة العربية يثور لإصلاح ديني ، ومحمد علي يتألب على الباب العالي يريد لنفسه حكماً مستقلاً ولأبنائه من بعده في مصر .

وعز على بعض المتحمسين أن يروا الشرق العربي منتكساً ذليلاً ، عز عليهم أن يروا الدين يستغل في انحراف ضد مصالح الجماهير الشعبية التي كساها الجهل بطبقات من الصدأ والسلبية والكسل . عزت عليهم هذه الاتجاهات الانتكالية التي جعلت دول المشرق الإسلامي ترقع تحت أقدام العثمانيين الأتراك ..

وتلألأت في السماء أربعة نجوم زاهرة ، وأرعدت السماء بالعرب أن يسمعوا الصيحات فتيقظوا ، وأبرقت السماء حتى تضيء لهم الطريق إلى الحرية والعزة والكرامة ... وإلى المجد الذي خبا . صاح جمال الدين الأفغانى ( ١٨٣٩ - ١٨٩٧ ) هداًفاً إلى إصلاح العقول والنفوس ، ثم إصلاح الحكومة

ورابطاً ذلك بالدين . وكان يرى إصلاح الحكومة عن طريق الشعب . عمل جاهداً بقلمه وحماسه على إنهاض الدول الإسلامية المتخلفة لتلحق بالأمم الغربية التي سبقها .

ومن النجوم الزاهرة عبد الله النديم ( ١٨٤٥ - ١٨٩٦ ) الذي فتح للناس في جريدته « التنكيت والتبكيث » و « الأستاذ » أبواباً من الإصلاح الاجتماعي كانت مغلقة ، في التعليم والزراعة ، واللغة والصناعة ، والأخلاق الخ ولد السيد عبد الرحمن الكواكبي في حلب عام ١٨٤٨ ، ونشأ نشأة دينية ، فتعلم اللغة العربية والدين في مدرسة أسرته بحلب بالمدرسة الكواكبية . ثم تعلم الفارسية والتركية . وقد تقلب الكواكبي في عدة وظائف ، وأنشأ جريدة في حلب اسمها « الشهباء » ، وعمل بالتجارة وبالمشروعات العمرانية ، واحتك بأصناف كثيرة من الخلق ومن ألوان الاستبداد التركي . ويذكر أنه ناوياً « عارف باشا » والى حلب من قبل السلطان عبد الحميد فزور الوالى عليه أوراقاً . وحوكم الكواكبي في بيروت بناء على طلبه . وانتهت المحاكمة بتبرئته ومعاقبة الوالى .

وقد أمضى الكواكبي الشطر الأكبر من حياته في دراسة أحوال المسلمين فقرأ عنهم ، وزار بلادهم مستطلعاً ودارساً . وخرج من هذه الدراسة بكتابين خلدا ذكره هما « طبائع الاستبداد » و « أم القرى » ويقول الأستاذ أحمد أمين في تعليقه على موضوعات كتابي الكواكبي ... « كان الحديث في مثل هذه الموضوعات التي مسها الكواكبي في كتابين من الموضوعات المحرمة ، لأنها تمس نظام الحكم من قريب ، وتفهم الشعوب حقوقهم وواجباتهم ، وتفهم على مناحي الظلم والعدل ، وتبيهم للمطالبي بالحقوق إذا سلبت ، والقيام بالواجبات إذا أهملت . وهذا أبغض شيء لدى الحاكم المستبد ، لذلك رأينا الشرق من بعد ابن خلدون أغلق هذا الباب ، ولم يفتحه أى باحث بعده . وصار كتاب ابن خلدون مقدمة بلا نتيجة . والعلوم التي حوفظ عليها واستمرت دراستها ، هي علم النحو والصرف واللغة والفقه ، لأنها لا تمس الحاكم من

قريب ولا بعيد ، ولا تفهم الناس أين هم من حاكمهم وأين حاكمهم منهم . والأدب مداح للملوك والحكام ، يجعل ظلمهم عدلاً وفسادهم صلاحاً ... والمؤرخون لا يؤرخون إلا شخص الحاكم في حياته وأعماله وحروبه وزوجاته وأولاده ، أما الشعب فلا شيء إلا أن يكون مزرعة للحكام . وأحب علم إلى الحكام المستبدين وأدعاهم لنصرتهم هو ما لا يتصل بالحكم ونظامه ، ورجال الدين المقربون هم الذين يدعون إلى التسليم بالقضاء والقتل ، ويستطيعون أن يولدوا المعاني من مثل « السلطان ظل الله في أرضه » . أما علم الاجتماع وعلم السياسة والاقتصاد فلم يعرفه الشرق بعد ابن خلدون بتاتاً ... » .

ويتخذ الكواكبي الدين أساساً للإصلاح لأنه كان يرى :

١ - أن الدين أصلح الأشياء لأن يقوم عليه الإصلاح ، وإن يكن هو ذاته في حاجة دائمة لمن يتعهد بالإصلاح . ويقول في هذا الصدد .... « وما أحوج الشرقيين أجمعين من بوذيين ومسلمين ومسيحيين وإسرائيليين وغيرهم إلى حكماء لا يبالون بغوغاء العلماء الغفل الأغبياء ، والرؤساء القساة الجهلاء ، يجددون النظر في الدين فيعيدون النواقص المعطلة ، ويهدبونه من الزوائد الباطلة ، مما بطراً عادة على كل دين يتقدم عهده فيحتاج إلى مجددين يرجعون به إلى أصله . » .

٢ - أن الإصلاح الديني يؤدي حتماً إلى إصلاحات عديدة في مختلف نواحي النشاط : فعندما أنكر البروتستانت معصومية البابا خطوا إلى اليقظة العقلية ، وتحرر العقل المسيحي من سلطان البابا ، ثم أزالوا الحواجز بين الإنسان وربه . وبدأ المسيحي يناقش النصوص الدينية ... ثم يناقش الأوامر التي تصدرها السلطة الزمنية ، وحاول تحديد العلاقة بين الحاكم والمحكومين . ورأى الكواكبي أن إصلاح الدين يتم بالنظر في (١) :

١ - الزبادات التي دخلت على الدين وليست منه ، والتشديدات التي جاء بها الفقهاء فأضرت بالدين نفسه وجعلته لا محتمل ولا يطاق ، والخلافات التي

(١) محمد أحمد خلف الله : الكواكبي - حياته وآراؤه . ص : ٢٥ .

وقع فيها الأقدمون وكيف جلبت عليهم الحيرة وشوشت على المسلمين أمور دينهم ودنياهم .

٢ - مصادر الدين التي يصح أن نقف عندها ، ولا نعدوها إلى غيرها ، والأسس التي يصح أن يقوم عليها فهم الدين واستنباط أحكامه . والحربة التي يجب أن يتمتع بها العقل البشري في أمور هذه الدنيا .  
وفي الصفحات القادمة نظرة طائر سريعة لأهم ما أورده عبد الرحمن الكواكبي في كتابيه « طبائع الاستبداد » و « أم القرى » .  
أولاً : كتاب « طبائع الاستبداد »

ويدور حول تعريف الاستبداد بأنه « صفة للحكومة المطلقة العنان . التي تتصرف في شئون الرعية كما تشاء ، بلا خشية حساب ولا عقاب » . ويتكلم عن علاقة الاستبداد بالدين والعلم والمجد والمال والأخلاق والتربية والترقي .

الاستبداد والدين : يقول الكواكبي ... « يرى المحررون السياسيون من الفرنج أن التعاليم الدينية ومنها الكعب السماوية تدعو البشر إلى خشية قوة عظيمة هائلة لا تدرك كنهها العقول تهتد الإنسان بكل مصيبة في الحياة وعذاب مديد أو خالد بعد الممات تهديداً ترتعد منه الفرائص فتخور القوى وتندهل منه العقول فتستسلم للخيل والأوهام . ثم تفتح هذه التعاليم أبواباً للنجاة من تلك المخاوف عليها حجاب من البشر هم الأخبار والقسس والمشايع . ودخوليتها التنظيم الراسب بالقلب والقالب ، أي تقديم جزية احترام مع ذلة اعتراف أو ثمن غفران أو كفالة الرزق من بيت المال لأولئك الحجاب الذين بعضهم يحجزون حتى الأرواح من لقاء ربها ما لم يأخذوا عنها رسوم المرور إلى القبور . وفدية الخلاص من الاعتراف .

ويقولون إن المستبددين من السياسيين يبنون استبدادهم على أساس من هذا القبيل أيضاً لأنهم يسترهبون الناس بالتعالى الشخصى والتشامخ الحسى ويدلونهم بالتهمر والقوة وسلب الأموال حتى يجعلوهم خاضعين لهم عاملين لأجلهم كأنهم خلقوا من جملة الأنعام نصيبهم من الحياة ما يقتضيه حفظ النوع فقط :

والحاصل أن كل المدققين السياسيين يرر السياسة والدين يمسيان متكاتفين ويعتبرون أن إصلاح الدين أسهل منلا وأقوى وأقرب طريقاً للإصلاح السياسي ... لا مجال لرمي الإسلامة بالاستبداد بعد أمثال هذه الآيات البيئات المفسرات للمواد من قوله تعالى « وأمرهم شورى بينهم » أى شأنهم . وقوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » وهم العلماء والرؤساء على ما اتفق عليه أكثر المفسرين ... إن الإسلامة مؤسسة على أصول الإدارة الديمقراطية أى العمومية والشورى والأريستوقراطية أى شورى الأشراف ... لكن لإهمال المراقبة والسيطرة والمواخذة والسؤال أوسع لأمرء الإسلام مجال الاستبداد وتجاوز الحدود ... وقد جمع البعض جملة مما اقتبسه وأخذة المسلمون عن غيرهم وليس هو من دينهم فقال : اقتبسوا مقام البابوية وتمثيله ، باحترام الأعاضم احترام عبادة . وطاعة الكبراء على العمياء وضاهوا مقامات البطارقة والكردينالية والشهداء وأستغفية كل بلد . وحاكوا مظاهر القديسين وعجائبهم والدعاة المبشرين وصبرهم ... وقلدوا رجال الكهنوت فى مراتبهم وتميزهم فى ألبستهم وشعورهم . وشاكلوا مراسم الكنائس وزينتها والبيع واحتفالاتها والترنحات ووزنها والترنحات وأصولها وإقامة الكنائس على القبور وشد الرحال لزيارتها .. والخلاصة أن البدع التى شوشت الإيمان وشوهت الأديان تكاد كلها تتسلسل بعضها من بعض وترمى جميعها إلى عرض واحد هو المراد ألا وهو الاستبداد... (١) .

الاستبداد والعلم : يقول الكواكبي ... « المستبد لا يخشى علوم اللغة المقومة للسان إذا لم يكن وراء اللسان حكمة حماس تعقد الألوية أو سحر بيان يفل الجيوش .. وكذلك لا يخاف المستبد من العلوم الدينية المتعلقة بالمعاد لاعقاده أنها لا ترفع غباوة ولا تزيل غشاوة وإنما يلهى بها المهوسون للعلم ، فاذا نبغ فيها البعض ونالوا شهرة بين العوام لا يعدم وسيلة لاستخدامهم فى تأييد أمره بنحو سد أفواههم بلقيات من فئات مائدة الاستبداد .. فلم ترتعد

فرائص المستبد من علوم الحياة مثل الحكمة النظرية والفلسفة العقلية وحقوق الأمم وسياسة المدينة والتاريخ المفصل والخطابة الأدبية وغيرها من العلوم الممزقة للغيوم .

ويقال بالإجمال إن المستبد لا يخاف من العلوم كلها بل من التي توسع العقول وتعرف الإنسان ما هو الإنسان وما هي حقوقه وهل هو مغبون وكيف الطلب وكيف النوال وكيف الحفظ . المستبد عاشق للخيانة والعلماء عواذله . المستبد سارق ومخادع والعلماء منبهون محذرون وللمستبد أعمال وصوالح لا يفسدها عليه إلا العلماء ... »

المستبد كما يبغض العلم لنتائجه يبغضه لذاته لأن للعلم سلطاناً أقوى من كل سلطان ، فلا بد للمستبد من أن يستحقر نفسه كلما وقعت عينه على من هو أرقى منه علماً ... لذلك لا يحب المستبد أن يرى وجه عالم أذكى فإذا اضطرب لمثل الطيب يختار المتصاغر المتعلق . وعلى هذه القاعدة بنى ابن خلدون قوله « فاز المتعلقون » بل هذه طبيعة في كل المتكبرين وعليها مبني ثنائهم على كل من يكون مسكيناً خاملاً لا يرجى لخير ولا لشر ...

ينتج مما تقدم أن بين الاستبداد والعلم حرباً دائمة وطرذاً مستمراً يسعى العلماء في نشر العلم ويجتهد المستبد في إطفاء نوره والطرفان يتجاذبان العوام . ومن هم العوام ؟ هم أولئك الذين إذا جهلوا خافوا وإذا خافوا استسلموا .. العوام هم قوت المستبد وقوته بهم ، عليهم يصول وبهم على غيرهم يطول . بأسرهم فيتهللون لشوكته ، ويفغصب أموالهم فيحملونه على إبقاء الحياة ، ويهينهم فيثنون على رفعتهم ويغري بعضهم على بعض فيفتخرون بسياسته ، وإذا أسرف بأموالهم يقولون عنه إنه كريم ، وإذا قتل ولم يمثل يعتبرونه رحيماً ويسوقهم إلى خطر الموت فيطيعونه حذر التأديب . وإن نقم عليهم منهم بعض الأباة قاتلوهم كأنهم بؤساء... (١) .

الاستبداد والمجد : ثم يتكلم الكواكبي عن الاستبداد والمجد ويقول بأن ..  
« العقل والتاريخ والعيان يشهد بأن الوزير الأعظم المستبد هو اللئيم الأعظم في  
الأمّة ثم من دونه من الوزراء يكونون دونه لوئماً ، وهكذا تكون مراتب  
لوئهم حسب مراتبهم في التشريفات ... المستبد حريص على ظلم الناس وهو  
محتاج لعصاة تعينه . فهل يجوز العقل أن ينتخب لعصابته من يشك فيه أنه  
لا يوافق على مراده ، كلا ... هل ينتخب وزيراً له من السوق لم تسبق له  
التجربة ولا معرفة ما انطوى عليه ، كلا ... إن وزير المستبد هو وزير المستبد  
لا وزير الأمّة كما في الحكومات الدستورية ... إن كل رجال عهد الاستبداد  
لا أخلاق لهم ولا حمية ولا يرجي منهم خير مطلقاً ...

إن المستبد فرد عاجز لا قوة فيه ولا حول له إلا بالمتمجدين . والأمّة  
المأسورة ليس لها من يحك جلودها غير ظفرها ، ولا يقودها إلا العقلاء بالتنوير  
والإهداء حتى إذا اكفهرت سماء عقول بنينا قبض الله لها منها قادة أبراراً  
يشرون لها السعادة بشقاؤهم والحياة بموتهم حيث جعل الله في ذلك لذتهم ومثلته  
خلقهم . كما خلق آخرين فساقاً فجاراً مهالكهم الشهوات والمثالب فسبحان  
الذي يختار من يشاء لما يشاء وهو الخلاق العظيم (١) .

ثم يتكلم الكواكبي عن « الاستبداد والمال » . ويرى الكواكبي الخير في  
نوع معقول من الاشتراكية فلا ينبغي أن يتساوى العالم الذي أنفق زهرة حياته  
في تحصيل العلم النافع ، أو الصانع الماهر في صنعة مفيدة ، وذلك الجاهل  
الحامل النائم في ظل الحائط ، ولكن العدالة تقتضي أن يأخذ الراق بيد السافل  
والغني بيد الفقير فيقربه من منزلته ، ويقاربه من معيشته . والحكومة  
الاستبدادية سبب في اختلال نظام الثروة ، فهي تجعل رجال السياسة والدين  
ومن يلحق بهم يتمتعون بحظّ عظيم من مال الدولة ، مع أن عددهم لا يتجاوز

الواحد في المائة... كما أن الحكومات المستبدة تيسر للسفلة طريق الغنى بالسرقة والتعدي على الحقوق العامة .

... يعرض لأثر الاستبداد في الأخلاق فيرى أنه يضعفها أو يفسدها ، فلا يحب الفرد وطنه لأنه يشقى فيه ، ولا ينعم بلذة العزة والشمم والرجولة . ويجعل الاستبداد من الفضائل رذائل ، ويفسد عقول المؤرخين ، ويفقد الثبات في الخلق ، ويرغم الأخيار من الناس على ألفة الرياء والنفاق .

الاستبداد والتربية : يقول الكواكبي : « خلق الله في الإنسان استعداداً للفساد فأبواه يصاحانه وأبواه يفسدانه ، أى أن التربية تربو باستعداده جسماً ونفساً وعقلاً ، إن خيراً فخير وإن شراً فشر . الاستبداد المشثوم يؤثر على الأجسام فيورثها الأسقام ، ويسطو على النفوس فيفسد الأخلاق ، ويضغط على العقول فيمنع نماءها بالعالم . بناء عليه ، تكون التربية والاستبداد عاملين متعاكسين في النتائج ، فكل ما تبذره التربية مع ضعفها يهدمه الاستبداد بقوته . الإنسان في نشأته كالغصن الرطب ، فهو مستقيم لدن بطبعه . ولكنها أهواء التربية تميل به إلى يمين الخير أو شمال الشر ، فاذا شب يبس وبقى على أمياله ما دام حياً ، بل تبتى روحه إلى أبد الأبدية في جحيم الندم على التضييق أو نعيم السرور بابقاء حق وظيفته الحياة ... »

التربية ملكة تحصل بالتعليم والتربص والقلادة والاعتباس فأهم أصولها وجود المربين وأهم فروعها وجود الدين ، وهذه الملكة بعد حصولها إن كانت شراً تضافرت مع النفس والشیطان فرمحت . وإن كانت خيراً تبقى مقلقة كالسفينه في بحر الأهواء لا يرسو بها إلا على فرعها الدينى أو الوازع السياسى مع المثابرة على العمل بمقتضاها ...

التربية الجسم وحده إلى سنتين ، وهى وظيفة الأم وحدها . ثم تضاف إليها تربية النفس إلى السابعة ، وهى وظيفة الأبوين والعائلة معاً . ثم تضاف إليها العقل إلى البلوغ وهى وظيفة المعلمين والمدارس . ثم تأتى تربية القلادة بالأقربين إلى الزواج وهى وظيفة الصدفه . ثم تأتى تربية المقارنة ( ٢٩٤ - تطور تفكير )

وهي وظيفة الزوجين إلى الموت أو الفراق . ولا بد أن تصحب التربية من بعد البلوغ تربية الظروف المحيطة ، وتربية الهيئة الاجتماعية وتربية القانون أو السير السياسى وتربية الإنسان نفسه ...

الحكومات المنظمة هي التي تتولى ملاحظة تربية الأمة من حين تكون في ظهور الآباء وذلك بأن تسن قوانين النكاح ثم تعنى بوجود القابلات والملقحين والأطباء ثم تفتح بيوت الأيتام واللقطاء ثم المكاتب والمدارس للتعليم من الابتدائى الجبرى إلى أعلى المراتب ، ثم تسهل الاجتماعات وتمهد المراسح وتحمى المنتديات وتجمع المكتبات والآثار وتقيم النصب المذكرات وتضع لقوانين المحافظة على الآداب والحقوق ... (١) .

ثم يتضح لنا أن التربية الصحيحة لا تمكن في ظل الاستبداد .

ثم يتكلم الكواكبي في الأجزاء الأخيرة من كتابه عن « الاستبداد والترقى » يقصد الترقى في الجسم وفي الاجتماع بالعائلة والعشيرة ، ثم الترقى في القوة بالعلم والمال ، ثم الترقى في الملكات بالحصال والمفاخر . ويتكلم عن الترقى الروحى ، وأن وراء هذه الحياة حياة أخرى يترقى إليها على سلم الرحمة والإحسان ، وأن الاستبداد بالأمة عدو ذلك كله .

ثم يقترح وسائل التدخل من الاستبداد عن طريق اللين وبالتدريج ويث اشعور بالظلم ، وهذا يكون بالتعليم والتحميس .

ثانياً : كتاب « أم القرى » (٢)

في هذا الكتاب ، الذى كتبه بالقاهرة بعد عودته من زيارات لبلاد إسلامية ، يتحدث الكواكبي عن مؤتمر عمدة في أم القرى ( مكة المكرمة ) حضره ممثلون عن الأقطار الإسلامية وبعض الضيوف . والكتاب في أسلوب قصصى طريف ، وفي رأى أغلب من كتبوا عن الكواكبي أن قصة المؤتمر

(١) المرجع السابق . ص : ٦٧ - ٥٧

(٢) الفقرات مأخوذة من كتاب « أم القرى » لعبد الرحمن الكواكبي ، طبعة المطبعة

المصرية بحلب - عام ١٩٥٩ .

إنما هي من نسج خياله ، وفي رأى البعض أن القصة لها أصل واقعي وأزاد عليه الكواكبي .

ويقول الكواكبي في مقدمة مفاوضات ومقررات مؤتمر النهضة الإسلامية المنعقد في مكة المكرمة سنة ١٣١٦ هـ .. « أما بعد فأقول ، وأنا هو الرحالة المتكئى بالسيد الفرائى : أنه لما كان عهدنا هذا ، وهو أوائل القرن الرابع عشر ، عهداً عم فيه الخلل والضعف كافة المسلمين ، وكان من سنة الله في خلقه أن جعل لكل شىء سبباً ، فلا بد لهذا الخلل الطارىء ، والضعف النازل من أسباب ظاهرة غير سر القدر الخفى عن البشر ؛ فدعت الحمية بعض أفاضل العلماء والسراة والكتاب السياسيين للبحث عن أسباب ذلك ، والتنقيب عن أفضل الوسائل للنهضة الإسلامية ، فأخذوا ينشرون آراءهم في ذلك في بعض الجرائد الإسلامية الهندية والمصرية والسورية والتتارية ، وقد اطلعت على كثير من مقالاتهم الغراء .. ثم بدا لى أن أسمى في توسيع هذا السعى بعقد جمعية من سراة الإسلام في مهد الهداية أعنى « مكة المكرمة » ...

ثم ارتحل ( في كلامه الوارد بالمقدمة ) من موطنه بأحد مدن الفرات وطاف ببلدان عربية . وتقابل مع من دعاهم في مكة ، ولم يتخلف عن الاجتماع سوى ( الأديب البيرونى ) ، أما المحتمون فكانوا : السيد الفرائى ، الفاضل الشامى ، البليغ القدسى ، الكامل الاسكندرى ، العلامة المصرى ، المحدث اليمنى ، الحافظ البصرى ، العالم النجدى ، المحتمن المدنى ، الأستاذ المكى ، الحكيم التونسى ، المرشد الناسى ، السعيد الانكليزى ، المولى الرومى ، الرياضى الكردي ، المحتمد التبريزى ، العارف التاتارى ، الخطيب القازانى ، المدقق التركى ، الفقيه الأفغانى ، الصاحب الهندى ، الشيخ السندي ، والإمام الصينى .

وعقد المؤتمر اثني عشر اجتماعاً ، وفي الاجتماعين السابع والثامن ( الأربعاء الرابع والعشرين من ذى العتدة سنة ١٣١٦ هـ ، والخميس الخامس والعشرين ) عرض السيد الفرائى أسباب فتور المسلمين وهي :

أولاً : أسباب دينية : كتأثير عقيدة الجبر في أفكار الأمة ، وتأثير المزهديات في السعي والعمل وزينة الحياة ، وفتن الجدل في العقائد الدينية ، والذهول عن سماحة الدين وسهولة التدين به ، وتشديد الفقهاء المتأخرين في الدين خلافاً للسلف ، ثم هاجم الدجالين والمدسوسين على الدين وتهاون العلماء في واجباتهم وكثرة الآراء في الدين ، والتعصب للمذاهب والآراء المتأخرين وتكليف المسلم نفسه ما لا يكلفه به الله وتهاونه فيما هو مأمور به (١) .

ثانياً : أسباب سياسية : مثل تفرق الأمة إلى عصبيات وأحزاب سياسية وحرمان الأمة من حرية القول والعمل وفقدانها الأمن والأمل ، وفقد العدل والتساوي في الحقوق بين طبقات الأمة ، إبعاد الأمراء والنبلاء الأحرار وتقريبهم المتملقين والأشرار ، وفقد قوة الرأي العام بالحجر والتفريق ، وانغماس الأمراء في الترف ودواعي الشهوات ، وحصر الاهتمام السياسي بالجبابة والجنودية فقط ... إلخ (٢) :

ثالثاً : أسباب أخلاقية : مثل الاستغراق في الجهل والارتياح إليه ، والإخلاد إلى الخمول وترويحاً للنفس ، وانحلال الرابطة الدينية ، وفساد التعليم والوعظ والخطابة والإرشاد ، وفقد التربية الدينية والأخلاقية ، فقد القوة المالية الاشتراكية بسبب التهاون في الزكاة ، وغلبة التخلق بالتملق تزلفاً وصغاراً وتفضيل الارتزاق بالجنودية والخدم الأميرية على الصنائع ، وتوهم أن علم الدين قائم في العمائم وفي كل ما سطر في كتاب ، ومعاداة العلوم العمالية 'رتباحاً للجهالة والسفالة ... وغيرها (٣) :

ثم هاجم العراقي الإدارة العثمانية وسوء معاملتها للعرب : « كما يستدل عليه من أقوالهم التي تجرى على ألسنتهم مجرى الأمثال في حق العرب كاطلاقهم على عرب الحجاز (ديلنجي عرب) أي العرب الشحاذين

(١) عبد الرحمن الكواكبي . أم القرى ص : ١٥٨ - ١٦٩ .

(٢) المرجع السابق ص : ١٦٠ - ١٦١ .

(٣) المرجع السابق . ص : ١٦١ .

برإطلاعهم على المصريين (كور فلاح) بمعنى الفلاحين الأجلاف .. (١) .  
وفي الاجتماع الثامن يستكمل السيد القراني أسباب فتور المسلمين ، فيقول  
إن من أعظمها غراراتهم أى عدم معرفتهم كيف يحصل انتظام المعيشة لأنه  
ليس فيهم من يرشد إلى شيء من ذلك ، بخلاف الأمم السائرة فان من وظائف  
خدمة الأديان عندهم رفع الغرارة ، أى إلى الحكمة فى شئون الحياة . وأما  
الأقوام الذين ليس عندهم خدمة دين أو الشراذم الذين لا ينتمون لخدمة  
دينهم ، فستفتنون عن ذلك بوسائل أخرى من نحو : التربية المدرسية ، والأخذ  
من كتب الأخلاق ، وكتب تدبير المنزل ، ومفصلات فن الاقتصاد والتواريخ  
المتقنة ، والرومانات الأخلاقية والتمثيلية ، أى كتب الحكايات الوضعية ،  
بنحو ذلك مما هو مفقود بالكلية عند غير بعض خاصة المسلمين ... (٢) .

ثم يتكلم عن أنواع من الغرارة ، فيقول إننا لا نرى ضرورة للإتيان فى  
الأمر ، وتوهمنا أن شئون الحياة سهلة بسيطة ، واللوث فى الأمور أى تركها  
بلا ترتيب ... « وخلاصة البحث أن الغرارة من أقوى أسباب الفتور ...  
إن لانحلال أخلاقنا سبباً مهماً آخر أيضاً يتعلق بالنساء وهو تركهن جاهلات  
على ما كان عليه أسلافنا ... كأم المؤمنين عائشة رضى الله عنها التى أخذنا عنها  
نصف علوم ديننا ، وكثات من الصحابييات والتابعيات راويات الحديث  
والمتفقهات ... وهذه حجة دامغة ترغم أنف غيره الذين يزعمون أن جهل  
النساء أحفظ لعفتن ، فضلاً عن أنه لا يقوم لهم برهان على ما يتوهمون ،  
حتى يصح الحكم بأن العلم يدعو للفجور وأن الجهل يدعو للعفة ... (٣) .

وفي الاجتماع الثانى عشر ( يوم الإثنين التاسع والعشرين من ذى القعدة  
سنة ١٣١٦ ) وفى هذا الاجتماع قرىء القانون الذى يقرر فى الاجتماعات الثلاثة  
السابقة ، وجاء فيه « قد تقرر فى الجمعية المنعقدة فى مكة المكرمة فى ذى القعدة

(١) المرجع السابق . ص : ١٦٩ .

(٢) المرجع السابق . ص : ١٧٣ - ١٧٤ .

(٣) المرجع السابق . ص : ١٧٨ - ١٧٩ .

سنة ست عشرة وثلاثمائة وألف ، المسماة (جمعية أم القرى) ، النتائج الآتية :

- ١ - المسلمون في حالة فتور مستحکم عام
- ٢ - يجب تدارك هذا الفتور سريعاً ، وإلا فتتحل عصبيتهم كلياً .
- ٣ - سبب الفتور تهاون الحكام ، ثم العلماء ، ثم الأمراء .
- ٤ - جرثومة الداء الجهل المطلق .
- ٥ - أضر فروع الجهل : الجهل في الدين .
- ٦ - الدواء هو : أولاً تنوير الأفكار بالتعليم ، ثانياً إيجاد شوق للترقي  
٩ ، رعوس الناشئة .
- ٧ - وسيلة المداواة عقد الجمعيات التعليمية القانونية .
- ٨ - المكافون بالتدبير هم حكماء ونجباء الأمة من السراة والعلماء
- ٩ - الكفاءة لإزالة الفتور بالتدریج موجودة في العرب خاصة .
- ١٠ - يلزم تشكيل جمعية ذات مكانة ونفوذ في دائرة القانون الآتی البیان  
باسم (جمعية تعليم الموحدين) (١) .

ثم عرض تشكيل الجمعية من مائة عضو ، منهم عشرة عاملون وعشرة  
مستشارون ، او ثمانون فخریون ، ويرتبط بالجمعية أعضاء محتسبون لا يتعين  
عددهم . وشرح مبادئها ومالياتها ووظائفها وسياساتها ومظهرها وقوتها .

• • •

ومات الكواكبي فجأة في عام ١٩٠٢ بالقاهرة ودفن بها ، مات الرجل  
الذي ثار على العثمانيين وحكهم ، ووجه أنظار المسامین إلى دينهم وضرورة  
إبعاده عن السياسة . وضع النقط فوق الحروف لكشف الاستبداد وأساليبه ،  
ودور التربية والتعالم في إخضاع من الاستبداد . وكانت صيحته في إصلاح  
الدين وتوحيد كلمة العرب لا تنقل في قوتها عن دعوة الشيخ محمد عبده .

### محمد عبده

الأزهر ... المركز الذى يفد إليه ألوف من المسلمين من أطراف الدنيا ... حياة المهاجرين تعدة قذرة ... كتب قديمة بالية لا تجد لها مكاناً فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر إلا تحت عمام علماء الأزهر الذين التفوا بأثواب الجمود والتخلف والرجعية والتبليس الفكرى ...

وكان الدين شعارهم الذى يحنون به وهم معاول هدم الدين الحنيف . الأزهر ، الجامعة الإسلامية الكبرى فصلت نفسها عن الدنيا متفوقة فى ركن ضيق من التفكير القاصر البالى . وقد أرضى هذا حكام مصر والسلطات الإنجليزية .

وتيارات سياسية تموج وتحاول أن تحرر مصر من المستعمرين ، ولكن كانت للشيخ فلسفة سبرت أعماله وأقواله ، فوقف مدافعاً عن الإصلاح الاجتماعى كأساس للتقدم . وأغضب السياسيين ، ونقم عليه الخديو توفيق ، وحاربه علماء الأزهر ... وامتألت الصحف والمجلات المعارضة له والمأجورة برسوم ساخرة منه محطة لقدره . وصمد الشيخ حتى عندما ألبسوه قبة وأوقفوه وسط حسنات فى صورة . .

ومع ذلك فقد كون الشيخ مدرسة للتفكير الفاسدى والإصلاح الاجتماعى والسياسى ... وفى الصفحات القادمة سأعرض فى غير تحقق أوجهة نظر واحد من دعوات الدعوة الإصلاحية فى أواخر القرن التاسع عشر . دعوة تتخطى حدود مصر إلى العالم العربى والإسلامى ، دعوة مؤمنة بأن للدين رسالة أسمى ١٤ ظمها مشايخ الأزهر . قال محمد عبده « ما رأيت بلداً جعل فى الدين دكاناً مثل هذا البلد » .

ولد محمد عبده عام ١٨٤٩ بحصة شبشير من قرى إقليم الغربية ، واكنه نشأ بقرية حماة نصر من قرى شبراخيت بإقليم البحيرة (١) ، وقد علمه أبوه فى الكتاب ، ثم أرسله إلى الجامع الأحمدي فى طنطا . وقامى الأمرين من جفاف

(١) عباس محمود العقاد : محمد عبده ، ص : ٦٩ .

المادة التي كان يدرسها ومن شكلية وسطحية التعليم . وعول على ترك التعليم والاتجاه إلى الزراعة ، وعارضه أبوه ، فهرب إلى بلدة فيها بعض أقاربه . وشاء القدر أن يلتقى بشيخ صوفي هو الشيخ درويش خضر خال أبيه ... « فينقلب محمد عبده كأنه شخص آخر حتى كأن عصا سحرية مسته ، وهنا يتجلى فعل المصادفات في حياة العظماء ، فلولا هرب محمد عبده إلى هذه البلدة وملاقاته لهذا الشيخ ، لكان محمد عبده المشهور هو محمد عبده المغمور الذي لا يعرفه أحد إلا بلده ، ولكان شأنه شأن أي فلاح في أي بلدة لا يسجل اسمه إلا في دفتر الموالي ودفتر الوفيات » (١).

وعن الشيخ درويش بدأ محمد عبده يفهم النحو ، ولم يستطع فهمه قبل ذلك . وعن الشيخ تلقى درساً آخر في « القيم » وعرف وآمن أن الإنسان بعمله الصالح وأن اسم الإسلام لا يصح أن يكون مخبأ ترتكب فيه الجرائم ، فالإسلام عقيدة وعمل لا ألفاظ سيالة تنتهي بمجرد النطق ، وأن المسلمين محاسبون على أعمالهم كغيرهم ، وأن أكثر من يسمون مسلمين لا يصح أن يدخلوا في عداد المسلمين ، وأن التعاليم الفاسدة ليست من الإسلام في شيء ، وأن أساس الإسلام وأساس العقيدة الصحيحة هو القرآن وحده ، وأن خير عادة هي تفهم معانيه .

وعاد محمد عبده إلى الجامع الأحمدي بعد أن أقنعه الشيخ درويش بأن العلم سهل ميسر ، وكان محمد عبده يريد من أعماقه الصفاء الروحي والتعلم ، سبعة أيام أمضاها مع الشيخ درويش غيرته تماماً ، فتقدم في دراسته !. والتحق بالجامع الأزهر . ورأى وعاش بن الطلبة ، واحتك بعن كُتب بالعلماء والمتفهمين في الدين

## الأزهر

ودخل الأزهر ... « إذا دخل الداخل إلى صحن الأزهر وجد فيه بقايا الكرات والفجل وقشور البصل وفضلات الحبز العفنة وجلود الفسيخ وقمامات

(١) أحمد أمين (المرجع السابق) ، ص : ٢٧٣ - ٢٨٤ .

الكنس من مواضع النوم أكوماً . وإلى جوانها ما يراق من مياه الشرب المأخوذة من الصهاريج ، وما تحمله النعال من وحل الطريق حيث يتأبط المجاور مداسه بلانفض ولا تنظيف . إذا وصل زائر إلى غرف السكنى فى الأروقة وجد هذا يغسل ثيابه ، ويهريق الماء بين يديه ، فيمنعه الكسل أن يمضى بها إلى البالوعات . وذلك يطبخ والدخان يسود وجه الحائط داخل المسكن . وذلك يغسل آنية ويريق ماءها المخلوط بالدهن والزيوت . وقد يحملهم الكسل على ترك غرف النوم الأسبوع والأسبوعين بلا كنس فيتراكم فيها التراب مع بقايا المأكولات .. كان المجاورون ينامون مزدحمين رأس الواحد عند رجل أخيه ومعهم فيها على ضيقها متاعهم وخبزهم وثيابهم وخزائن كتبهم وأدوات الطبخ والوقود .. كان من أكثر الأمراض إنتشاراً بين المجاورين الجرب والرمد . وأهم ما كانوا يستعملونه لعلاج الجرب هو كبريت العامود . ولا تسل عن الدرس إذا كان بين طلبته جربان قد طلى جلده بالكبريت والقطران . فقد يختلط هذا بسواه ويزدحمون ، ويالله إذا كان الفصل فصل قيظ ، فهناك تنتشر تلك الروائح الكريهة ، وتسرى العدوى إلى معظم المجاورين ... وكان يخفف من آلام الجرب على الطلاب ، أن مشايخهم كانوا يقولون لهم « إن الجرب علامة الفتوح ، وأن الذى لا يالحقه الجرب من المجاورين بعد بينهم مترفاً ، ولا يؤمل فيه النجاح (١) » .

وأنفق محمد عبده فى الأزهر زهاء ثلاث سنين دون أن يجنى فائدة تذكر من الدروس التى كان يجلس للاستماع إليها . وكان مرجع ذلك إلى طريقة الدروس السائدة ، طريقة جامدة عقيمة تفرض على طلاب العلم مختصرات لا تفهم إلا بثروح وحواشى وتقارير ، فالأمن له شرح ، وللشرح حاشية ، وللحاشية تقرير ... ثم ازدحم ذاكرة الطلبة بحشد مشوش من المعلومات النحوية المتشابكة والتدقيقات اللفظية التى تزهق الفكر وتوقه عن النمو (٢) .

(١) محمد صبيح : محمد عبده ، ص : ٦٥ - ٦٦ .

(٢) عثمان أمين : رائد الفكر المصرى ، ص : ٢٠ .

ولم يسترح محمد عبده لما يدرس في الأزهر ، فكان التعليم فيه يقوم على الفلسفة اللفظية ، ويعلم طالبه الدقة في الفهم والقدرة على الجدل . وهذه محمّدة ولكن مع الأسف لا تستخدم هذه الدقة ولا الجدل إلا في الألفاظ وتجعل صاحبها غارقاً في الاحتمالات بما يراه من الحواشي والشروح من التأويلات ، فكل شيء يجوز حتى دخول الجمل في البندقة - على حد تعبير الشيخ محمد عبده نفسه - يتم الطالب الدراسة فيه فيخرج فاهماً لبضعة كتب ، أما الدنيا وشؤونها فانه يجهلها كل الجهل ، فلا جغرافية ولا تاريخ ولا طبيعة ولا كيمياء ولا رياضة ، فكل هذه علوم أهل الدنيا ، وما للآخرة والدنيا .. ومع هذا فالنزاع على الجراية كثير وعلى الوظائف الصغيرة أكثر ، كل شيء خارج عن المألوف كفر أو حرام أو مكروه ، فتحويل ( الميضأة ) القدرة إلى حنفيات حرام ، وذهاب للبركة !!! وقراءة كتب في الجغرافية أو الطبيعة أو الفلسفة حرام ، ولبس ( الجزمة ) بدعة (١).

وكره محمد عبده كتاباً ، فطبخ به عدساً ... وتطلعت نفسه إلى علوم جديدة . وقد أملت به أزمة نفسية ، فارس ضروب الزهد والرياضة وحاول إعترال الناس ، ولكن الشيخ درويش أنقذه من هذه الأزمة الصوفية . ثم التقى محمد عبده بجمال الدين الأفغانى ، فوجد فيه ما كان يبحث عنه ، ووجد الأستاذ في تلميذه مساراً لتيار آرائه . وكان جمال الدين شخصية فذة جريئة جذبت إليها جماعات الشبان المتحمسين في استنبول . وفي القاهرة اتصل به محمد عبده ، وسعد زغلول ، وإبراهيم اللقانى ، وإبراهيم الهلباوى ، ومحمود سامى البارودى ، وإبراهيم المويلحى وأديب إسحق وغيرهم .

عرف عن جمال الدين دعوته إلى ( الجامعة الإسلامية ) التى ترمى إلى إتحاد جميع الشعوب التى تعيش فى كنف الإسلام ، وكان يقول إن الدول الغربية تنتحل الأعدار فى اعتدائها على البلاد الإسلامية وإذلالها قائلة إن المالك

الإسلامية هذه : « إنما هي من الانحطاط والهوان بحيث لا تستطيع أن تكون قواماً على شئون نفسها بنفسها » (١).

وتفتحت عيننا محمد عبده على آفاق واسعة بعد أن زالت الحجب التي أسدلتها دراسته في الأزهر ، وتحول من تصوف خيالي إلى تصوف فلسفي عملي ورغبة صادقة في العمل للأمة ، وشوقاً إلى الإصلاح الديني والخلقي والاجتماعي واقترب قطبا الإصلاح : الأفغاني ومحمد عبده ، أمامهما هدف واحد وأمل واحد ، يترفعان عن الناس في غير كبر ، ويستصغرانهم في عطف من غير احتقار ... يقول محمد عبده : « إن أبي وهبني حياة يشاركني فيها أخوأي (علي ومحروس) ، والسيد جمال الدين وهبني حياة أشارك فيها محمداً وإبراهيم وموسى وعيسى ، والأولياء والقديسين » .

وبعد أن تخرج محمد عبده في الأزهر بشهادة العالمية عام ١٨٧٧ ، عين مدرساً في دار العلوم ، وخرج عن المؤلف فدرس مقدمة ابن خلدون . وألف كتاباً في « علم الاجتماع وال عمران » ، وقد فقد الكتاب . وكان قد بدأ يكتب في جريدة الأهرام منذ أول سنة ظهورها عام ١٨٧٦ ، وزاد اتصاله بالصحافة بعد أن نال العالمية ، وبعد أن نزل الخديو إسماعيل ، وتولى توفيق . ونفى السيد جمال الدين ، وتولى رياض باشا رئاسة النظار . وأمر رياض الشيخ محمد عبده باصلاح « الوقائع المصرية » ورئاسة إدارة المطبوعات . وكان الشيخ مؤيداً لرياض باشا في سياسته التي رامت الإصلاح التدريجي .

### كفاحه

وكانت له الفرصة السانحة للنقد الاجتماعي عن طريق الصحافة ، فكذب مهاجماً العادات والتقاليد ، والاتجاهات غير السليمة في الدين ، ولكنه كان بعيداً عن السياسة فكان الشيخ معنياً بأمر التربية والتعليم ويلح في إصلاحها ويحطم العادات البالية ويدعو إلى احترام القوانين . كان يؤمن بأن التعليم قادر على خلق طبقة واعية مستنيرة تستطيع أن تحقق الحكم النيابي الصحيح . وكان

(١) عثمان أمين (المرجع الأمس) ، ص : ٢٣ .

يومن أنه — في وقته — لا جدوى من النظام النيابي طالما الشعب جاهل متخلف وأن الحرية الشخصية والاجتماعية ضارتان ما لم تدعما بالتربية حتى لا يسقط الناس في الخمر والقمار وهتك الحرمات والمجاهرة بالإلحاد ، وكان يقول : « إنما ينهض بالشرق مستبد عادل » ردأ على من يرى أنه إنما ينهض بالشرق حكم نيابي شامل . وكان الشيخ الأمام يرى أن هذا المستبد العادل قادر أن يفعل في خمسة عشر عاماً الأعاجيب ، وينقل الأمة خطوة واسعة إلى الأمام .

وقد عارض الشيخ رأى أحد تلاميذ السيد جمال الدين ، هو شاب سورى اسمه أديب إسحق كان على درجة عالية من الثقافة والذكاء ، وكان يومن بأن الحكم النيابي هو الأمل الوحيد في الإصلاح ، فان كان الناس لم يتعودوه خليتعودوه ، وأنه لا بأس من مضي قليل من الوقت حتى يألفه الناس ويسيروا عليه . وكان لأديب إسحق جريدتان! « مصر » و « التجارة » . وكما أيد محمد عبده رياض باشا ، كان أديب يؤيد شريف باشا ، معتمداً أنه تقدمي ، ورياض رجعي . وقد أغلق رياض جريدتي أديب إسحق . وعندما أُلّف شريف مجلس النواب عينه سكرتيراً فيه ، ولكن الموت عاجله وهو في ريعان شبابه ، في سن التاسعة والعشرين يتفجر ذكاء وعبقرية وحماساً .

وقامت الثورة العربية ، وقبض على الشيخ بتهمة اشتراكه فيها ، وسجن ثلاثة أشهر عجاف قاسية . ثم حكم عليه بالنفي ثلاث سنوات ، فرحل إلى بيروت عام ١٨٨٣ والاحتلال البريطاني في مصر .

ثم دعاه أستاذه جمال الدين ليوافيه في باريس ، وهناك أنشأ مجلة « العروة الوثقى » ، ويلاحظ أن مقالاته في « العروة الوثقى » اتسمت بدفاعه لا عن مصر المحتلة فقط ، بل عن العالم الإسلامي كله ، ملهياً الشعور بالعزة عن طريق العقيدة الدينية السليمة . وزار لندن ، مدافعاً عن استقلال مصر ، ولم يجد أذناً تصغي ، وعاد إلى باريس ، واحتجبت « العروة الوثقى » عن الظهور ولم يزد عمرها عن ثمانية أشهر .

ثم عاد إلى بيروت ، بعيداً عن غليان وثورة السيد جمال الدين ، فترك

السياسة متخذاً أسلوب طبيعته في الإصلاح العقلي والديني والاجتماعي ، بالتأليف والتدريس وتفسير القرآن . ووضع لائحة في إصلاح التعليم الديني في مدارس المملكة العثمانية ، كما رفع لائحة أخرى إلى والي بيروت لإصلاح الأحوال في سورية .

وفي مصر توسل له الكثيرون عند كرومر والخديو توفيق ، منهم الأميرة نازلي التي أعجبت بكتابات ، وكانت مهتمة بالسياسة . وعفى عنه ، وعاد من المنفى بعد أن اغترب ست سنوات لأن الخديو كان غاضباً عليه .

وعاد إلى مصر ... الخديو مسالم الإنجليز ، والسلطة كلها بأيديهم حتى في الأزهر . ولم يجد سنداً يحميه في دعوته الإصلاحية . واضطر أن يسالم الإنجليز أملاً أن استنارة الشعب وفهمه لحقوقه وواجباته سيرغمان الإنجليز على الجلاء . وكانت وسيلته إلى ذلك إصلاح التعليم . بل هو ينقد أستاذة جمال الدين لاهتمامه الكلي بالسياسة دون الإصلاح الداخلي ، وينقد الأميرة نازلي انصرافها إلى الجهود السياسي وعدم تأسيسها جمعية للنهضة النسوية مثلاً .

ووقف محمد عبده يتزعم الرأي بأن الإصلاح الداخلي الحقيقي هو وسيلة الجلاء ، ضد مصطفى كامل الذي يتزعم الرأي بأنه لا أمل في الإصلاح الحقيقي إلا بزوال الاحتلال أولاً .

وتقاب محمد عبده في وظائف غير التي كان يريد ، فقد أراد نظارة نازلي العلوم أو يعمل أستاذاً بها ، فاذا به يعين قاضياً أهلياً ثم مستشاراً في محكمة الاستئناف . وفي عام ١٨٩٢ مات توفيق ، وتولى بعده الخديو عباس . وتقرب منه الشيخ فقد عرف عنه الحماس لمناهضة الاحتلال معضداً من بقايا رجال الثورة العرابية وتركيا وفرنسا ، وحاول الشيخ إصلاح الأزهر ...

### إصلاح الأزهر

أراد الإمام الشيخ أن يكون الأزهر جامعة بالمعنى الصحيح ، يتلقى فيها الطلاب الثقافة الصحيحة التي تعدهم لأن يكونوا رجالاً عاملين ، فيكون منهم لمصر والإسلام قضاة ذوو نزاهة وأساتذة باحثون ، وعلماء متخصصون ومرشدون مخلصون ، يعملون على بث الآراء الدينية السليمة ، والمعاني

الأخلاقية الرفيعة ، ومكافحة الخرافات والقضاء على البدع والأباطيل (١) .  
فكلف الخديو الشيخ بوضع مشروع للإصلاح . وشكل الشيخ مجلس إدارة  
من كبار علماء المذاهب في الأزهر ونلخص آراءه في الإصلاح في :

١ - تحديد مدة الدراسة في الأزهر : فكان المجاورون بمضمون الأعوام  
الطويلة في الأزهر دون رقابة أو اهتمام من أولى الأمر . وقد حدد القانون  
( الذي اقترحه مجلس الإدارة الجديد ) بدء السنة الدراسية ونهايتها ، وأيام  
العطلات والمساحات :

٢ - نظام التدريس والامتحان : اقترح أن تعقد للطلبة امتحانات سنوية  
وكان هذا نظاماً جديداً ، فلم يزد عدد الممتحنين كل عام عن ستة ، وهؤلاء  
يتقدمون للامتحان بالوساطات والشفاعات والرجوات وإلحاح الملحين ،  
واقترح المشروع كذلك مكافأة الطلبة المتفوقين من بين الممتحنين ، بغرض  
بث روح التسابق فيهم وترغيبهم في التحصيل .

٣ - الكتب : تلغى بعض الكتب العقيمة كالشروح والحواشي والتقارير  
التي كان من شأنها أن تشوش على الطلاب موضوعات العلوم التي يدرسونها ،  
وتسبب ذلك هذه الكتب أخرى أنفع وأقرب إلى مدارك الطلاب :

٤ - المواد الدراسية : تقسم العلوم إلى : علوم مقاصد وتطول مدة  
الدراسة فيها ، كالتوحيد والتفسير والحديث والفقه وأصول والأخلاق ؛  
وعلوم وسائل كالمنطق والنحو والبلاغة ومصطلح الحديث والحساب والجبر  
وهذه العلوم بقسميها يمتحن فيها طلاب شهادة العالمية .

٥ - مواد جديدة : يقرر إدخال دروس ومحاضرات جديدة في علوم  
التاريخ والتاريخ الطبيعي والرياضيات والجغرافية والفلسفة والاجتماع وغيرها ،  
٦ - الرعاية الصحية : توفير الشروط الصحية ، وتعيين طبيب ، وبناء  
مستشفى لطلبة العلم الفقراء .

ولكن حدث أن وقف الشيخ في مسألة استبدال أرض للأوقاف في الجزيرة

(١) عثمان أمين ( المرجع الأسبق ) ، ص : ١٨٣ - ١٨٧ .

ضد الخديو الذي أراد مصلحة مالية فيها ، وقبل إنه تضايق من الشيخ فألقى بالأحجار أمام المشروع ، كما أن مشايخ كثيرين من الأزهر وقفوا ضده ، فقد تولى الشيخ سليم البشرى مشيخة الأزهر في يولييه ١٨٩٩ ، وكان محافظاً مناوئاً لكل فكرة جديدة ، فعطل أعمال مجلس الإدارة ، وعدل عن عقد الامتحانات السنوية . ثم تولى الشيخ على البيلاوى مشيخة الأزهر في إمارس عام ١٩٠٣ ، وكان على وفاق مع الشيخ محمد عبده ، وعاد تيار الإصلاح وانتظمت الدراسة غير أن إشاعة سرت أن الخديو لام البيلاوى لأنه يعمل في الأزهر كما يريد المفتى الشيخ محمد عبده .

وتكون في الأزهر حزب معارض قوى يتزعمه الشيخ محمد الرفاعى ، وفي عضويته شيخ رواق الصعايدة الشيخ المنصوري ، وهاجم الحزب الأستاذ الإمام لأنه أصدر فتوى تجيز للمسلم طعام أهل الكتاب ولبس ( البرنيطة ) إذا إقتضته ظروف الحياة أن يعيش بينهم . وأخذ الحزب يشيع أن مفتى الإسلام يعمل على التأليف بين المسلمين والمسيحيين ... وأشيع أن الخديو أراد عزل المفتى محمد عبده فعارضه كرومر .

وكثر الهجوم عليه فاستقال من مجلس إدارة الأزهر ... بعد أن يتس من الإصلاح ، ولكنه ترك بذور ألم تستطع القوى الرجعية أن تنزعها .. هل كان الأستاذ الشيخ الإمام يتصور أو جال بخاطره أن يصل الأزهر إلى ما وصل إليه عام ١٩٧٠ ، وفيه كليات كالطب والهندسة ، والتربية وكليات للبنات .. الخ ، أعتقد أن أحلى أمانيه ما كانت تصل في طموحها إلى ما وصل إليه الأزهر اليوم في مناهجه وطرائقه وإمكاناته وطلبته وحياتهم وأساتذتهم .. وفوق كل هذا رسالته وفلسفته .

• • •

جاء رفاة الظهطاوى بزااد جديد واتجاهات حديثة من الغرب فاصداً الإصلاح ، واندفع على مبارك في حماس أشعلته خبرة قاسية إلى إصلاح التعليم كركيزة للنهوض بوطنه . وجاء الشيخ محمد عبده ليقول إن هذا النهوض

مستحيل الحدوث ما لم يعاد النظر في مفاهيمنا عن الدين حتى نعود به من طريقه السائر فيه إلى حيث يجب أن يسير هادياً بالحق والحرية والعدل والخير والجمال

وقف الشيخ أمام كنيسة موريالى القديمة في صقلية معجباً بجمالها وقدمها ، ويقول : « إن العرب ، رحمهم الله ، لم يمسوا هذه الكنيسة بسوء مع عظمة سطوتهم ، وامتداد ملكهم في صقلية » ، ثم يتساءل عن العرب ... أين هم ؟ ويجب « يمكن أن يقول قائل : إنهم في جزيرة العرب ، أو في الشام أو في العراق ، أو في مصر ، أو في تونس والجزائر : أو في المغرب الأقصى ... ألم يكفك كل هذا العدد في أكثر من ألف بلد ، حتى تقول أين هم ؟ ولكن أقول له : إنما يكون القوم أولئك القوم ، إذا بقيت لهم أخلاقهم وحياة أرواحهم ، فان كان لم تبق سوى أشباح تشبه أشباحهم ، فليسوا منهم ، ولي الحق أن أقول عن العرب أين هم ؟ » .

« أما قومي فأبعدهم عني ، أشد قرباً مني ، وما أبعد الإنصاف منهم ... يظنون في الظنون ؛ بل يتربصون في ريب المنون ، تسرعاً منهم في الأحكام ، وذهاباً مع الأوهام ، وولعاً بكثرة الكلام ، وتلذذاً بلوك الملام . أقول فلا يسمعون وأدعو فلا يستجيبون ، وأعمل فلا يهتدون ، وأريهم مصالحهم فلا يبصرون ، وأضع أيديهم عليها فلا يحسون ، بل يفرون إلى حيث يهلكون ، شأنهم الصياح والعويل ، والصخب والتهويل ، حتى إذا جاء حين العمل صدق فيهم قول القائل في مثلهم :

لكن قومي وإن كانوا ذوى عدد ليسوا من الشر في شيء وإن هانا

وأقول .. ولا من الخير .. وإنما مثل فيهم مثل أخ جهله إخوته ، أو أب عقته ذريته أو ابن لم يحن عليه أبواه وعمومته مع حاجة الجميع إليه وقيام عدمه عليه ، يهدمون منافعهم بليذاته ولو شاءوا لاستبقوها باستبقائه ، يسعى ويدأب ليطعم من يلهو ويلعب ... على أنى أحمد الله على الصبر وسعة الصدر إذا ضاق الأمر ، وقوة العزم ، وثبات الحلم . وإن كنت في خوف من حلول

الأجل قبل بلوغ الأمل خصوصاً عندما أرى أن العمل في أرض ميتة لو ذابت عليها السماء مطراً لما أنبتت زرعاً ولا أطلعت شجراً . أفزع لذكرى هذا وأجزع ، ويكاد قلبي ينقطع .

أب رعموم يخشى على أولاده ، وأولاده يتسابقون في النكاية به والسخرية منه وتلفيق التهم له . وهو صابر جامد حلیم ، يحاول بالحب والإيمان أن يجبي الأرض الميتة . واتبهوه أنه متعاون مع كرومر الإنجليزي تارة ، ومع الخديو تارة أخرى ، وأنه رجعي ، زنديق ملحد كافر خارج على الدين ، صاحب البدع التي اهتزت لها عمائم مشايخ الأزهر ... هو المارق الفاسد المفسد الملعون في الأرض والسماء .

وما كان يريد إلا خير مصر والعرب والمسلمين في غير تعصب ديني نهى عنه الدين الحنيف . كان يريد من الإسلام سماحته التي عرف بها في قرنيه الأول والثاني قبل أن تغزوه الخزعبلات والتعصبات العمياء والعادات المدسوسة عليه . رفع القرآن ووجد فيه عدل حكم ، لكن المشايخ المناوئين له فسروا شروحه تفسيرات منحرفة .

وتحدى الأستاذ الإمام القوة فهاجم أسطورة محمد على في مقال طويل قائلاً : إنه يرفع الأسافل ويعليهم في البلاد والقرى حتى انخط الكرام وساد اللثام ... وتمتع الأجنبي بحقوق الوطن التي حرم منها ، وعاش الوطني غريباً في داره ، فاجتمع على سكان البلاد الرسمية ذلان : ذل ضربته الحكومة الاستبدادية وذل سامهم الأجنبي إياه ... ثم يتساءل هل فكر محمد على في بناء التربية على قاعدة الدين أو الأدب ؟ وهل خطر في باله أن يجعل للأهالي رأياً في الحكومة في عاصمة البلاد أو أمهات الأقاليم ؟ هل توجهت نفسه لوضع حكومة قانونية منظمة يقام بها الشرع ويستقر العدل ؟

طالب الأستاذ الإمام في جرأة بالإصلاح ، وضيع مشايخ الأزهر أجيالاً في مناقشة لفظة أو تخريح ما أو تفسير كلمة ما .. محاولات ومناقشات ليس ( م ٣٠ — تطور الفكر )

وراءها نفع ولا فائدة . وحاول الشيخ الإمام أن ينههم إلى ما هم فيه من غفلة .  
ولكن تيارات الرجعية والجمود والتيس كانت أقوى منه .  
ومع ذلك فقد كون الشيخ محمد عبده مدرسة فكرية ظلت تعمل ، ونجى  
اليوم ثمارها .  
وفي ١١ يوليو سنة ١٩٠٤ أسلم الشيخ روحه . ولكن يظل يعمل بأفكاره .